الجمهوريـة الجزائـريـة الديمقراطيـة الشعبيـة
République Algérienne Démocratique et Populaire
وزارة التعليـم العالـي والبحـث العلمـي
Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique

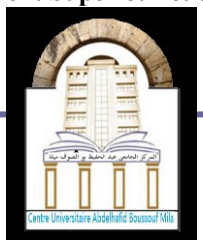

المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف لميلة
معهد الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

المرجع: .....

الحبك المكاني في رحلة ابن حمادوش الجزائري

مذكرة معدة استكمالا لمتطلبات نيل شهادة الماستر

الشعبة: لغة و أدب عربي

التخصص: أدب عربي قديم

إعداد الطالب(ة):
*- أسماء قرواز

إشراف الأستاذ(ة):
عزوز سطوف

السنة الجامعية: **2016/2015**

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

عملا بقول أعظم الخلق سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»

أحمد ربي حمداً كثيراً وأثني عليه وأرفع شكري إليه.

وإذا كان من كمال الفضل شكر ذويه، فإني أتقدم بخالص الشكر إلى الأستاذ المشرف "عزوز سطوف" على ما أولاه لي من العناية العلمية، ومتابعته رحلة البحث، وحرصه وتوجيهاته وملاحظاته.

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى السادة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة الذين تكرموا بقراءة هذا البحث ومناقشتهم لي.

وأتقدم بالشكر الجزيل كذلك لكل من ساعدني في إتمام هذه الرسالة من أساتذة وطلبة داعية الله –جل وعلا- أن يوفقني وإياهم إلى كل خير.

شكرا والشكر لا يفي

وبالشكر تدوم النعم

إهداء

إلى من لا يمكن للكلمات أن توفي حقهما

إلى من لا يمكن للأرقام أن تحصي فضائلهما

إلى والدي العزيزين أدامهما الله لي وأطال في عمرهما.

إلى أجزاء من روحي أخي وأخواتي: علي، نجوى، حسينة، وردة، روفية، سهام، خولة

إلى أحبتي بلا استثناء... ما دامت الحياة صفحات دربها الوفاء والإخلاص

إلى كافة أساتذتي وزملائي في المركز الجامعي.

أهدي ثمرة جهدي المتواضع

أسماء

مقدمـــــة

مقدمـــة

لقد عرف العرب منذ القديم عدة فنون سردية مرتبطة بتراثها الأدبي من بينها أدب الرحلة الذي يعتبر من الفنون الأدبية التي شاعت لدى العرب منذ القديم والواقع أن هذا الفن موغل في القدم عرفته قبل العرب أمم أخرى كالفراعنة والفينيقيين والرومان والإغريق، ثم جاء الرحالة العرب الذين جابوا الآفاق واشتهر منهم كثيرون مشرقا ومغربا أمثال ابن جبير، وابن بطوطة والإدريسي، وابن حمادوش صاحب الدراسة وغيرهم.

وإذا كان المكان في السرد التخييلي هو نقطة انطلاق من أجل تحريك خيال القارئ، فإنه في الرحلة مكان حقيقي يود السارد أن ينقله بواسطة اللغة إلى من لم يشاهده ليتخيله، ولهذا لا يصبح الوصف المرتبط بالمكان ذا خاصية زخرفية أو تزيينية كما في السرود التخيلية، وإنما يصبح هذا الوصف توثيق الشيء كما هو موجود، والإحتفاظ به كمشهد.

لهذا فإن المكان في الرحلات هو المرجع الذي يشكل الخلفية الطبيعية لأحداث فعل السفر، عبر الطريق الممتد من نقطة الانطلاق إلى نقطة الوصول ثم العودة، وهذا الخط الأفقي تتعدد مناظره، فهناك مناظر الأودية، والجبال، وهناك المدن والقرى، وناس عاديون وعلماء، وخيرون طيبون وأشرار، وقطاع طرق، وهناك مساجد وقبور، وأسواق... الخ، وهذا العالم الفسيح يشكل الفضاء الرحب لكل رحلة، وبهذا تصبح الرحلة هي المؤطرة للمكان لكون الإنتقال من مكان إلى آخر يصحبه تحول في الشخصية، وهذا ما يجعلها قادرة على التعامل مع الآخرين، أما حين تعيش في أماكن مغلقة معزولة، قد تعيش في عالم من الوهم تسقط مع أول تجربة في التعامل مع الآخرين.

إن المتأمل في السرد العربي القديم يجد ثمة علاقة بيّنة تربط بين السارد وبيئته وتتخذ من المكان عنصرا أساسيا يضفي على هذه العلاقة صبغة خاصة، وقد حاول هذا البحث الموسوم بـ "الحبك المكاني في رحلة ابن حمادوش الجزائري" دراسة المكان باعتباره بنية من البنيات التي تكون الرحلات، حيث يلعب هذا المكان دورا هاما في بناء الرحلة، وفي تركيبها فهو الإطار الذي يحوي الأحداث، وتتحرك فيه الشخصيات، بل يتجاوز كونه مجرد إطار لها

أحيانا لتصبح له فاعلية في هذه الأحداث، كما أنه يعتبر عنصرا مهما في تشكيل بنية النص السردي، من خلال علاقته بالإنسان لكونه يعد انعكاسا لسلوك صاحب النص.

وقد جاء هذا الموضوع نتيجة جملة من الأسباب لعل أهمها ما يلي:

الكشف عن حبك أي طبيعة ووظيفة المكان في الرحلة، لأن عزل المكان هنا لا يستند على أي مبدأ، ولا يأتي هذا العزل كضرورة تتطلبها الدراسة لمختلف العناصر المؤلفة للخطاب السردي، حيث لا يمكن تصور المكان بمعزل عن باقي عناصر السرد، ولكن كضرورة إجرائية لاكتشاف أنواع المكان وطبيعته ومميزاته في رحلة ابن حمادوش.

وجاء اختيارنا لرحلة ابن حمادوش أنموذجا للتطبيق لأنها نادرة في نوعها، إذ لم يبق لنا سوى عدد ضئيل جدا من الرحلات الجزائرية التي تعود إلى العهد العثماني، إضافة إلى كون هذه الرحلة مصدر لحياة مؤلفها، فهي مرآة تعكس حياته ونشاطه وتفكيره، وبالتالي نستطيع التعرف على هذه الشخصية المجهولة التي يعرفها إلا القليل، فقد كاد النسيان يأتي على هذه الشخصية الهامة في تاريخنا الثقافي لولا كتاباته التي جعلت الباحثين يهتمون به بعد وفاته، وقلة الدراسات التي تناولت هذه الرحلة، فبالرغم من أنها تحتوي على موضوعات كثيرة غير مترابطة إلا أنها تحفل بالعديد من الأمكنة.

وتهدف هذه الدراسة إلى محاولة تبيين دور فاعلية المكان في الأدب الرحلي، أي أهمية سرد المكان في أدب الرحلة، فهو القاعدة المادية الأولى التي ينهض عليها السرد، فكل رحلة لا تخلو من الأحداث المتنوعة، وبتعدد الأمكنة تتعدد الأحداث في الرحلة.

وعليه فقد سار هذا البحث وفق خطة تضمنت فصلين وخاتمة تصدرتها مقدمة حيث:

تضمن الفصل الأول –وكان نظريا– مبحثين، المبحث الأول خصص لدراسة المكان، حيث تناولنا فيه مفهوم المكان، وأنواعه، وأهميته في النص السردي،وعلاقاته بعناصر السرد القصصي (الشخصية، الحدث، الزمن، اللغة) أما المبحث الثاني فقد خصص لدراسة أدب الرحلة، تناولنا فيه مفهوم الرحلة، ونشأتها، وخصائصها الفنية، وأنواعها، حيث ركزنا على

أنواع الرحلات الجزائرية في العهد العثماني بالتحديد باعتبار أن موضوع دراستنا "رحلة ابن حمادوش الجزائري" في هذه الفترة.

أما الفصل الثاني –وكان تطبيقيا– فقد أفرد لدراسة المكان في رحلة ابن حمادوش الجزائري وقد تضمن أيضا مبحثين، المبحث الأول لدراسة أنواع الأماكن في الرحلة، أما المبحث الثاني فقد تناول فيه طبيعة المكان ومميزاته.

وخاتمة تضمنت أهم النتائج التي توصلنا إليها من خلال هذه الدراسة.

أما المنهج المعتمد في هذه الدراسة هو المنهج الوصفي المعتمد آلية التحليل لأنه أكثر توافقا مع طبيعة الموضوع، فالرحالة وهو ينتقل من مكان إلى آخر أثناء رحلته يصف لنا الأماكن التي حل بها كما يصف الأحداث التي عاشها والشخصيات التي تعامل معها، فيصف الحركات والألبسة والعادات والتقاليد... أي أنه يعمل على تقديم كل التوضيحات والتفاصيل للمتلقي.

أما أهم المصادر والمراجع التي اعتمدت في الدراسة كانت: رحلة ابن حمادوش الجزائري لعبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، جماليات المكان لجماعة من الباحثين، بنية الشكل الروائي لحسن بحراوي، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي لحميد لحميداني، تاريخ الجزائر الثقافي ج1، ج2، لأبي القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري، حياته وآثاره، لأبي القاسم سعد الله، موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين الصادرة عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

وككل بحث علمي فإن بحثنا باعتباره نظري تطبيقي، لم يخل من الصعوبات والعراقيل لعل أهمها: انتماء الرحلة إلى العهد العثماني، وخوض غمار البحث في هذا العهد، وباتفاق الدارسين، تعتبر مغامرة غير محمودة العواقب نظرا لطبيعة الإنتاج الأدبي فيه، وعلى وجه الخصوص الرحلة تتميز بالإطناب وكثرة الاستطرادات ما يجعل قراءتها وتتبع أحداثها أمرا صعبا يتطلب جهدا أكبر ووقت أطول، بالإضافة إلى قلة المراجع التي تناولت رحلة ابن حمادوش.

وفي الأخير نتقدم بالشكر الجزيل للأستاذ المشرف "سطوف عزوز" على ما قدمه لي من نصائح وإرشادات ساعدتني على إكمال بحثي هذا، وعلى ما أولاني من رعاية كريمة وعناية عظيمة فجزاه الله عني وعن أهل العلم خير جزاء.

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى أعضاء لجنة المناقشة على تفضيلها قراءة هذا البحث وعلى ما ستقدمه من تصويبات تسهم إن شاء الله في إثراء هذا البحث.

وختاما أتمنى من المولى عز وجل أن يوفقني لما يحبه ويرضاه، وأن يجعل عملي نافعا، وخالصا لوجهه الكريم، فإن أصبت في هذا البحث بتوفيق من الله سبحانه، وإن أخطأت فسبحانه وتعالى المنزه عن الخطأ.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على النبي المرشد إلى كل الخيرات، وعلى آله وصحبه المقتدين بهديه مادامت الحياة.

الفصل الأول:

المكان وأدب الرحلة

المبحث الأول: المكان:المفهوم،الأنواع،الأهمية،وعلاقاته بعناصر السرد.

1.مفهوم المكان :

لقد أثبت المكان منذ القديم دوره الكبير في تكوين حياة البشر، وترسيخ كيانهم، وتثبيت هويتهم، وتحديد تصرفاتهم، وإدراكهم للأشياء لكونه شديد الارتباط بذواتهم، فالمكان هو الموضع الذي يولد فيه الإنسان والذي يستقر فيه والذي يعيش فيه ويتطور فيه حتى ينتقل من حال إلى أخرى.

أولا: المفهوم اللغوي للمكان :

جاء في لسان العرب مفهوم المكان لغة تحت الجدر «كَوَنَ» بمعنى: «المكان: المَوضِعْ، والجَمْعَ أمْكِنَة وأَمَاكِنُ، تَوَهَّمُوا الميم أصلاً حتَى قَالُوا: تَمَكَّنَ في المَكَانِ».[1]

وقد أعاد "ابن منظور" الحديث في لفظة المكان تحت الجذر «مَكَنَ» فقال: «المَكَانُ: المَوْضِعْ والجَمْعُ أَمْكِنَة، كَقذَالْ وأَقْذِلَةٍ، وأَمَاكِنَ جَمَع الجَمْعِ. قال "ثعلب": يبطل أن يكون مَكانٌ فعالاً لأن العرب تقول: كُنْ مكانك، وقُمْ مكانَكَ، واقعد مَقْعَدَكَ، فقد دل هذا على أنه مصدر من كان أَو موضعٍ منه؛ قال: وإِنّما جُمِعَ أمكِنَةً فعاملوا الميم زائدة معاملة الأَصلية، لأنَّ العرب تُشَبِّهُ الحرف بالحرف».[2]

على الرغم من ذكر "ابن منظور" المكان ضمن الجذرين «كَوَنَ»و«مَكَنَ» إلاّ أنه يؤكد أنّ الجذر الحقيقي للمكان هو «كَوَنَ» وليس «مَكَنَ».

---

[1] ابن منظور، لسان العرب، مادة (كَوَنَ)، تح: خالد رشيد القاضي، ط1، دار صبح، بيروت، لبنان، 2006م، ج12، ص 185.

[2] المصدر نفسه، مادة "مَكَنَ"، ج13، ص 157.

ويستند القاموس المحيط "للفيروز أبادي" في تعريفه للمكان للسان العرب حيث جاء الجذر «كَوَنَ» ما يلي: « الكَوْنُ: الحدَثُ، كالكَيْنُونَةِ.والكَائنَةُ: الحادِثَةُ. وكَوَّنَهُ: أَحْدَثَهُ... والمَكَانُ: المَوْضِعُ، كالمَكَانَةِ ج: أَمْكِنَةٌ وأَمَاكِنُ... والمصدَرُ: الكَوْنُ، والكيَانُ والكَيْنُونَةُ... والمَكَانَةُ: المَنْزِلَةُ».[1]

ويؤكد أصحاب "القاموس المعاصر" «المنجد في اللغة العربية المعاصرة» أن المكان مشتق من الجذر "كَوَنَ" وهذا في قولهم «مكان: جمع أمكِنَة وجمع الجمع أمَاكِنُ، موضِعٌ وهو مَفْعَلٌ من "كون"».[2]

من خلال ما تقدم نستنتج أن القواميس العربية جميعها تؤكد على أن الجذر الحقيقي للفظة المكان هو "كَوَنَ" وليس "مَكَنَ" وأجمعوا على أن المكان هو الموضع، والخلق، والمنزلة، والحيز والمركز، والمكانة الرفيعة.

إذن لا يكون للمكان معنى بالمفهوم المعجمي العربي إلا إذا ارتبطت به الحياة، فالمكان هو الموضع الذي تدب فيه الحياة.

أما في التنزيل الحكيم فقد وردت لفظة مكان بدلالات ومعاني متعددة منها ما يدور حول معنى المستقر ومنه قوله تعالى «وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا»[3] أي: اعتزلتهم وتنحت عنهم، وذهبت إلى شرق المسجد الأقصى.

---

[1] مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، القاموس المحيط، مادة (كَوَنَ)، تح: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة باشراف: محمد نعيم العرقوسي، ط8،مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان،2005م، ص 1228.

[2] المنجد في اللغة العربية المعاصرة، دار المشرق، ط1، بيروت، لبنان، 2001م، ص 1357.

[3] سورة مريم، الآية: 16.

ومنها ما جاء بمعنى المنزلة الرفيعة في آيات عديدة منها قوله تعالى «قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا»[1] وشَرُ مكان أي منزلة. كما وردت بمعنى الموضع كقوله تعالى: «مَكَانًا سُوًى»[2] وقوله أيضا: «وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا».[3]

من خلال ما تقدم نستنتج أن من أبرز المعاني المذكورة للمكان في القرآن الكريم هي: «المستقر، المنزلة الرفيعة، الموضع».

ثانيا: المفهوم الفلسفي للمكان :

لقد تعددت مفاهيم مصطلح المكان لدى الفلاسفة ابتداءً من فلاسفة اليونان القدامى وانتهاءً بفلاسفة العصر الحديث.

إذ يعرفه "أفلاطون" بقوله: «هو الحاوي والقابل للأشياء».[4]فمن هذا التعريف يتضح أنّ المكان كل ما يقبل الأجسام أو ما يحتوي الجسم.

ثم جاء أرسطو الذي بحث في مصطلح المكان بحثا مفصلا، وعرفه بقوله: «هو نهاية الجسم المحيط ونهاية الجسم المحتوي».[5]

---

[1] سورة مريم، الآية: 75.

[2] سورة طه، الآية: 58.

[3] سورة الفرقان، الآية: 13.

[4] نقلا عن: عبد الرحمان بدوري، مدخل جديد إلى الفلسفة، ط3، وكالة المطبوعات، الكويت، 1979م، ص 196.

[5] أريسطو طاليس، الطبيعة، تر: إسحاق بن حسين، تح: عبد الرحمان بدوري، ط1، الهيئة المصرية العامة، مصر، 1984م، ص 271.

من خلال هذا القول نلاحظ أن المكان هو الحيّز الذي يشغله أي شيء في هذا الكون ونجد أرسطو في هذا التعريف قد أخذ بتعريف أفلاطون وتوسع فيه بشكل قليل.

أما الفيلسوف الرياضي "إقليدس" فالمكان عنده هو ثلاثي الأبعاد، الطول والعرض والعمق. ويوافقه في ذلك "ديكارت" وهو من فلاسفة العصر الحديث، بأن المكان يمتد في الأبعاد الثلاثة.

ولم تخرج التصورات الفلسفية الإسلامية للمكان عن المفاهيم السابقة، حيث نجد الفلاسفة المسلمين لا يختلفون كثيرا في تعريفاتهم عن فلاسفة الغرب.

فمثلا نجد "أبو حامد الغزالي" يعرف المكان بقوله «إنّ المكان عبارة عن سطح الجسم الحاوي، أعني سطح الباطن المماس للمحوي».[1]

أما "إخوان الصفاء" يرون بأنّ «مكان كل متمكن هو الجسم المحيط به».[2]

حسب الآراء الفلسفية في مختلف العصور فإنّ أهم خاصية ركزت عليها مقاربات المكان هي صفته الاحتواء/ احتواء الأجسام أو استقرارها عليه وموضع حركتها فيه.

إذن فإنّ هذه التعريفات الفلسفية –الغربية والعربية الإسلامية– تعريفات حسية قابلة للملامسة.

وفي المعاجم الفلسفية تعددت أيضا أوجه النظر إلى المكان حيث يرد المكان في موسوعة "لالاند" الفلسفية بأنّ: «مكان، مجال، فضاء، مدى espace: وسط مثالي متميز بظاهرية أجزائه تتمركز فيه مداركنا.»[3]

[1] نقلا عن: باديس فوغالي، الزمان والمكان في الشعر الجاهلي، عالم الكتب الحديث، أربد، الأردن، 2008م، ص 173.
[2] إخوان الصفاء، رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء، تقديم عليوش عبود، دط، موفم للنشر، الجزائر، 2007م، ج2، ص 98.
[3] أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تر: خليل أحمد خليل، ط2، منشورات عويدات، بيروت، 2001م، ص 362.

نلاحظ أن هذا التعريف قد ساوى بين مصطلحات عديدة وهي: المكان، والمجال، والفضاء، والمدى، كما أنّ معنى المكان هنا قد ارتبط بصفة الإحاطة، فالمكان يحيط بنا، وبكل مداركنا.

أما في "المعجم الفلسفي" فقد جاء تعريفه كالآتي:

- يقال مكان، لشيء يكون فيه الجسم، فيكون محيطا به.
- يقال مكان، لشيء يعتمد عليه الجسم، فيستقر عليه.[1]

وبناء على ما تقدم يمكن القول: أن هذا التعريف قد جاء مطابقا للتعريف السابق بحيث يتقاطع التعريفات عند معنى الإحاطة، والاستقرار.

ثالثا: المفهوم الأدبي للمكان :

إن المكان في الأدب ينظر إليه من جوانب وأبعاد مختلفة فهو يحمل دلالات متعددة على عكس المكان الحقيقي الذي سعت إليه الدراسات الفيزيائية إلى تحديد أبعاده، وبحثت الدراسات الفلسفية عن تعريف حسي له فحسب.

لقد وظفت الدراسات النقدية الحديثة مصطلح "المكان" بمفاهيم مختلفة منها: "المكان، الفضاء، الحيز، الفراغ، الموقع...الخ"، هذا الاختلاف في طبيعة المصطلح أدى إلى اختلاف النقاد في تعريفات المكان، فهو مصطلح غير مستقر يشهد تنازع الجانبين النقديين الغربي والعربي في تصوراتهما عن المكان، ولذلك سوف نشير إلى جهود بعض نقاد الغرب والعرب الذين تناولوا مصطلح المكان/ الفضاء/ الحيز.

[1] مصطفى حسيبة، المعجم الفلسفي، ط1، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، 2009م، ص 603.

تشير "سيزا قاسم" في هذا الصدد في كتابها "بناء الرواية"، إلى أن بعض النقاد الغربيين المعاصرين يحاولون التفرقة بين المصطلحات التي تعبر من المستويات المختلفة للمكان، واعتبرت أن سر التمييز بين المكان والفضاء يكمن في تعدد المصطلح في اللغات "العربية، الانجليزية، الفرنسية" «وقد اكتفى النقاد الكلاسيكيون في اللغات الثلاث باستخدام كلمة المكان (Lieu/Place) للدلالة على كل أنواع المكان حيث لم يكن معنى الفراغ (الفضاء) بمفهومه الحديث قد نشأ بعد. وبينما ضاق الفرنسيون بمحدودية كلمة (Lieu) بدأوا باستخدام كلمة (Espace) (فراغ) لم يرض نقاد الانجليزية عن اتساع (Space/Place) (مكان/فراغ) وأضافوا استخدام كلمة (Location) (بقعة) للتعبير عن المكان المحدد لوقوع الحدث».[1]

لذلك تعود الناقدة إلى وصف المكان في الرواية وتضفي عليه مفهوم الفضاء حيث تجعل منه عالما متخيلا تصنعه الكلمات فالروائي «عندما يبدأ في بناء عالمه الخاص الذي سوف يضع في إطاره الشخصيات يصنع عالما مكونا من الكلمات وهذه الكلمات تشكل عالما خاصا خياليا قد يشبه عالم الواقع وقد يختلف عنه وإذا شابهه فهذا الشبه شبه خاص يخضع لخصائص الكلمة التصويرية».[2]

وإذا انتقلنا إلى "غاستون باشلار" في كتابه الموسوم «جماليات المكان» نجده ينطلق من نقطة أساسية هي: أن المكان «هو المكان الأليف، وذلك هو البيت الذي ولدنا فيه، أي بيت

[1] سيزا أحمد قاسم، بناء الرواية، دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ، ط1، دار التنوير، بيروت، 1975م، ص 101.
[2] المرجع نفسه، ص 104.

الطفولة. انه المكان الذي مارسنا فيه أحلام اليقظة، وتشكل فيه خيالنا. فالمكانية في الأدب هي الصورة الفنية التي تذكرنا أو تبعث فينا ذكريات بيت الطفولة».[1]

فمن خلال هذا التعريف نلاحظ أن "غاستون باشلار" تجاوز الفكر الفلسفي الكلاسيكي للمكان الذي يركز على أبعاده الهندسية والجغرافية، حينما قد تصوره الفذ في المكانية، وذلك في كتابه «جماليات المكان»، إذ يركز على القيم الإنسانية التي يتسم بها المكان اعتمادا على فاعلية الخيال: «فالخيال يتخيل ويغني نفسه دون توقف بالصور الجديدة. وما أود استكشافه هو ثروة الوجود المتخيل».[2]

أما الناقد السوفياتي "يوري لوتمان" فيرى أن بداية الاهتمام بالمكان الفني، راجع إلى ظهور بعض الأفكار، والتصورات التي تربط بين المكان والعمل الفني على أن هذا الأخير هو «مكان تحدد أبعاده تحديدا معينا، هذا المكان (المكان الفني) من صفاته أنه متناه، غير أنه يحاكي موضوعا لا متناهيا، وهو العالم الخارجي الذي يتجاوز حدود العمل الفني».[3]

وفي تعريفه للمكان، وهو تعريف شامل، لا يقتصر على مكان النص والمكان الجغرافي فحسب، وإنّما يتعداها إلى كل الأشياء التي يمكن أن تقوم بينها علاقات مكانية يقول: «المكان هو مجموعة من الأشياء المتجانسة من الظواهر، أو الحالات، أو الوظائف أو الأشكال

[1] غاستون باشلار، جماليات المكان، تر: غالب هلسا، ط2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 1984م، ص6.

[2] المرجع نفسه، ص 31.

[3] جماعة من الباحثين، جماليات المكان، ط2، دار قرطبة، الدار البيضاء، المغرب، 1988م، ص 68.

المتغيرة...، تقوم بينها علاقات شبيهة بالعلاقات المكانية المألوفة/ العادية مثل الاتصال، المسافة...إلخ».[1]

هذا فيما يخص بعض النقاد الغربيين أما النقاد العرب فنجدهم أيضا اختلفوا في تسمية مصطلح "المكان" تبعا لمنظورات استخدامه من المكان إلى الفضاء إضافة إلى مصطلح الحيز.

من النقاد العرب الذين أولوا "المكان" عناية خاصة في دراستهم، نذكر –على سبيل المثال لا الحصر– الناقد "عز الدين إسماعيل" الذي نظر إلى الصورة الشعرية على أنها تمثل المكان النفسي، وليس المكان المحدد لأن: «حقيقة المكان النفسية تقول أن الصفات الموضوعية للمكان ليس إلاّ وسيلة، أو وسائل قياسية تسهل التعامل بين الناس في حياتهم اليومية».[2]

فالأثر النفسي هو المحدد لأبعاد المكان، عند عزّ الدين إسماعيل. هذا الأثر ناتج عن التعامل والتفاعل بين الإنسان ومجتمعه.

من النقاد كذلك نجد "حميد لحميداني" في كتابه الموسوم بـ «بنية النص السردي» والذي وظف فيه مصطلحي المكان والفضاء، ففي معرض حديثه عن الفضاء المكاني يرى بأن الدراسات لم تقدم مفهوما واحدا للفضاء، فهو عبارة عن مجموعة آراء حصرها فيما يلي: الفضاء كمعادل للمكان، والفضاء النصي، والفضاء الدلالي، والفضاء كمنظور أو كرؤية، فالعنصر الأول نجده يحصره في تصور خاص بالمكان يقول: «يُفْهَمُ الفضاء في هذا التصور على أنه

[1] جماعة من الباحثين،جماليات المكان، ص 39.

[2] عز الدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، ط2، مكتبة غريب، القاهرة، مصر، 1990م، ص 68.

الحيِّزُ المكاني في الرواية أو الحكي عامة، ويطلق عليه عادة الفضاء الجغرافي (L'espace géographique)».[1]

وبعد هذه الأشكال التي قدمها لتصورات الفضاء يعود لمحاولة التمييز بين الفضاء والمكان ويتفق مع "حسن بحراوي" في الإشارة إلى صعوبة التمييز بين الفضاء والمكان إلا أن الفضاء ليس المكان لأنه الفضاء أوسع وأشمل من معنى المكان، ويحصر وجه الخلاف بين المصطلحين في المساحة التي يغطيها كل منهما في العمل الروائي ويؤكد على ذلك بقوله: «وما دامت الأمكنة في الروايات غالبًا ما تكون متعددة، ومتفاوتة، فإن فضاء الرواية هو الذي يَلُفُّهَا جميعًا إنه العالم الواسع الذي يشمل مجموع الأحداث الروائية، فالمقهى أو المنزل، أو الشارع، أو الساحة كل واحد منهما يعتبر مكانًا مُحَدَّدًا، ... إن الفضاء وِفْقَ هذا التحديد – شُمُولي– إنه يشير إلى "المسرح" الروائي بكامله. والمكان يمكن أن يكون فقط متعلق بمجال جزئي من مجالات الفضاء الروائي».[2]

من خلال هذا القول نلاحظ أن الباحث يشير إلى ضرورة التمييز بين الفضاء والمكان ويذهب إلى التركيز على المكان أكثر من الفضاء، فهو أحد المكونات المهمة للفضاء نظرا لحاجة الروائي إلى تأطير المكان.

إن التمييز بين المكان والفضاء الذي أثاره لحميداني يستند إلى طبيعة مكونات العمل الأدبي وهو بذلك يشير إلى مكونات وعناصر العمل الروائي وكل هذه العناصر تشكل الفضاء الروائي الذي تتألف في مستواه عناصر الحكي بينما يعد المكان جزءا من مجموع بقية المكونات وعلى الرغم من اعتباره إحدى المكونات فإنه يظل عنده المكون الأساسي للفضاء الروائي «لأن الرواية

[1] حميد لحميداني، بنية النص سردي من منظور النقد الأدبي ، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1991م، ص 53.
[2] المرجع نفسه ، ص63.

إذ تضع عالمها الخاص، وإذ تستفيد حتما من الواقع فإنها قابلة لأن تجعل طل الأمكنة مادة لبناء فضائها الخاص.»[1]

أما "حسن بحراوي" في كتابه «بنية الشكل الروائي» فيذهب إلى دراسة المكان باعتباره عنصرا حكائيا، ويرى كذلك أن الفضاء أصبح عنصرا حكائيا أساسيا وهكذا يظل يجمع بين المصطلحين دون تمييز أحدهما على الأخر إلا في حدود التعريفات والشواهد التي أوردها، حيث ارتبط عنده المكان بالفضاء على اعتبار أن لكل مكان فضاءاته، وفي تحليله لتلك الفضاءات نجده يعتمد على مقاربات باشلار، ولوتمان.

وعندما يتحدث عن أماكن الإقامة الإختيارية فإنه يشير إلى أهمية فضاء البيت باعتباره مصدر للمعاني والقيم، كما يستعمل في موضع أخر شعرية المكان وأثره في تشكيل الفضاء إذ «أنها تسلم بتأثير الوجود الإنساني على تشكيل الفضاء الروائي وتلح خصوصا على أهمية رؤية الإنسان للمكان الذي يأهله.»[2]

ورغم استعماله للمصطلحين "المكان والفضاء" لكنه لم يورد تعريفا محددا لهما، فنجده يطلق الفضاء على المكان تارة، وتارة أخرى يطلق المكان على الفضاء، ويعتبر «شكل الفضاء الروائي من الكلمات أساسًا، يجعله يتضمن كل المشاعر والتصورات المكانية التي تستطيع اللغة التعبير عنها»[3]. فهو يتحدث عن فضاء لا يوجد إلا من خلال الكلمات.

كما يشير "حسن نجمي" إلى هذا التداخل في كتابه "شعرية الفضاء" ويرى ضرورة تميز الحدود بينهما، غير أن هذا التميز لا يتضح تماما إلى درجة أن صاحب الكتاب ينتهي إلى عدم

[1] حميد لحميداني، بنية النص سردي من منظور النقد الأدبي ، ص 72.

[2] حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، دراسة في الرواية المغربية، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1990م، ص 45.

[3] المرجع نفسه، ص 27.

ضرورة الإلحاح على هذا الفصل فيقول: «إذا كان الفصل بين الفضاء والمكان ضروريا ويستلزم كل قراءة نقدية جدية القيام به فإنه بالمثل أن لا نلح عليه كثيرا، بل الأفضل أن نكتفي بتشغيل الفضاء على امتداد الدراسة ولا نذكر المكان إلا حيث ينبغي أن يذكر»[1]. نلاحظ أن في هذا الرأي ما يشير ضمنا إلى صعوبة الفصل بينهما.

وينتهي الباحث إلى نقد ترجمة كتاب غاستون باشلار«جماليات المكان» حيث رأى أن الخلط بين مصطلح الفضاء والمكان بدأ في الخطاب النقدي العربي من هذه الترجمة التي عربت الفضاء (Espace) بالمكان.

أما "عبد المالك مرتاض" في كتابه "في نظرية الرواية" فقد أشار إلى مصطلح أخر هو "الحيز" ونجده ملحا على توظيف هذه الصيغة، أي "الحيز"، ومرد ذلك –في رأيه– أن مصطلح الفضاء «قاصر بالقياس إلى الحيز؛ لأن الفضاء من الضرورة أن يكون معناه جاريا في الخَواء والفراغ؛ بينما الحيز لدينا ينصرف استعماله إلى النُتوء، والوزن، والثِقل، والحجم، والشكل»[2] أي أن الفضاء في نظره أوسع من أن يشمل مساحة الحيز.

أما مصطلح المكان فإن له منزلة أخرى لدى الناقد قائلا: «أن المكان تريد أن نَقِفَه في العمل الروائي على مفهوم الحيز الجغرافي في وحده».[3]

---

[1] حسن نجمي، شعرية الفضاء المتخيل والهوية في الرواية العربية، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2000م، ص 41.

[2] عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، د.ط، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1998م، ص 121.

[3] المرجع نفسه، ص 121.

استناد إلى ما تقدم يمكن القول أن مصطلح المكان اختلف استخدامه من ناقد إلى أخر، ومن تجربة نقدية لأخرى، فمرة يرد بلفظ المكان ومرة يرد بلفظ الفضاء، ومرة أخرى بلفظ الحيز.

2. أنواع المكان :

لقد شهد المكان على الصعيد الفني ولاسيما الروائي تقسيمات عدة فعلى الصعيد العربي نجد "سعود أحمد يونس" يقسم المكان إلى ثلاث أنواع هي:

أ. **المكان الواقعي:** وتناول فيه الأمكنة الطبيعية واللأمكنة الاصطناعية، والاتجاهات والمسافات.

ب. **أماكن العبور:** وتناول فيه الشواطئ والسواحل والمحيطات وحواجز العبور الاصطناعية والطبيعية ووسائلها.

ج. **المكان التاريخي:** وتناول فيه المكان الأسطوري والمكان الديني والمكان الحضري.[1]

أما على الصعيد الغربي فهناك من قسم المكان بحسب السلطة التي تخضع لها هذه الأمكنـــة كـــ: "إلزابيـــت رومـــر" (rhomer Elisabeth) و "أبراهـــام. أ. مـــول" (Abraham.a.moles) إلى أربعة أقسام:

أ. **المكان (عندي):** وهو المكان الذي يشعر فيه الإنسان بالألفة والاحتواء فهو المكان الذي يمنحه الإحساس بالاستقلالية والحرية.

[1] نقلا عن: بن عمارة منصورية، المكان في الشعر المغربي القديم (من القرن الخامس هجري إلى نهاية القرن السابع الهجري)، مذكرة تخرج لنيل شهادة ماجيستر في الأدب المغربي القديم، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2011م، ص ص 10- 11.

ب. **عند الأخرين:** ويتميز هذا النوع من الأماكن عن سابقيه في كونه يحد من حرية الفرد، بحيث يصبح هذا الأخير خاضعا لأصحاب السلطة فيه.

ج. **الأماكن العامة:** وهي الأماكن التي تعود ملكيتها للسلطة العامة "الدولة" ويتقاطع هذا النوع من الأمكنة مع النوع السابق في كون الفرد يبقى خاضعا لسلطة الغير، مما سيحد كذلك من حريته.

د. **المكان اللامتناهي:** ويتمثل في تلك المناطق النائية، والأماكن البكر، الخالية من أي مظاهر حضاري كالصحاري، والغابات. وتتبلور ميزة هذا النوع من الأماكن في كونها تعيد للفرد إحساسه بالحرية، والانطلاق والتجرد من كل القيود.[1]

وهناك أنواع أخرى للمكان وهي الأكثر تداولا منها:

أ. المكان المفتوح (الأماكن العامة) :

تكتسب الأماكن المفتوحة أهمية بالغة في النصوص المسرحية إذ أنها تساعد على «الإمساك بما هو جوهري فيها، أي مجموع القيم والدلالات المتصلة بها.»[2]

فالأماكن المفتوحة أماكن عامة يمتلك كل واحد حق ارتيادها، وتعد فسحة عامة تسمح للناس بالالتقاء والتواصل كما تسمح بالحركة والتفاعل.

إن المكان المفتوح حيز مكاني خارجي لا تحده حدود ضيقة، يشكل فضاءً رحبًا وغالبا ما يكون لوحة طبيعية في الهواء الطلق، ويتجسد هذا النوع في المكان الطبيعي خاصة و«هو

[1] جماعة من الباحثين، جماليات المكان، ص 61.

[2] حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص 79.

المكان الذي لم تتدخل يد الإنسان في إقامته وتشكيله، ذلك أنه وجد هكذا منذ الأزل بصورته الخاصة، وخاصياته وخواصه المميزة»[1]. ويتسم هذا المكان بالسعة والامتداد، الارتفاع، الانبساط مثل "الأرض، الوديان، الجبال، البحار...".

لكن هذا لا يعني أن الطبيعة وحدها المكان المفتوح بل هناك أماكن أخرى، كالمدن عامة، الوطن، وحتى السماء، فهذا المكان يختلف من شخص إلى آخر.

ب. الأماكن المغلقة (الأماكن الخاصة) :

هي التي يتنقل فيها الإنسان ويشكلها حسب أفكاره والشكل الهندسي الذي يروقه، ويناسب تطور عصره، وينهض المكان المغلق كنقيض للمكان المفتوح.

وتتمثل في الأماكن التي يرتادها الناس للعبادة "كالمسجد والكنيسة" أو لشراء حاجياتهم كالدكاكين والمحلات: وهي الأماكن التي تكشف عن أمزجة وأذواق الفرد.[2]

ويمثل المكان المغلق غالبا الحيز الذي يحوي حدود امكانية تعزله عن العالم الخارجي، ويكون محيطه أضيق بكثير بالنسبة للمكان المفتوح: «قد تكون الأماكن الضيقة مرفوضة لأنها صعبة الولوج، وقد تكون مطلوبة لأنها تمثل الملجأ والحماية التي يأوي إليها الناس بعيدا عن صخب الحياة».[3]

بناءً على ما تقدم يمكن القول أن تقسيمات المكان تختلف من باحث إلى أخر كل حسب خلفية النظرية التي اعتمدها إضافة إلى الأنموذج المراد دراسته.

---

[1] سعيد يقطين، قال الراوي، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1997م، ص 255.

[2] ينظر: عبد الله الخمّار، فن الكتابة وتقنيات الوصف، د.ط، دار الكتاب العربي، الجزائر، 1998م، ص 340.

[3] جماعة من الباحثين، جماليات المكان، ص 63.

3. أهمية المكان في النص السردي:

للمكان أهمية كبيرة في بناء أحداث النص السردي، أيا كان نوعه "قصة، رواية، رحلة..." فهو البنية الأساسية من بناياتها الفنية، ذلك أننا لا نتصور أحداثا قصصية، تفتقد إلى مكان تنمو فيه وتتكاثر وتتناسل، لأنّ المكان يحتوي على الأحداث، ويبنيها ويشعبّها ويؤطرها «والفعل الإنساني وإن كان تخيلا محضا، لا يتصور جاريا في غير زمان فإنه لا يتصور في غير مكان أيضا»[1] ومن داخل الفضاء المكانّي، تتم عمليات التخيّل والاستذكار، فلا يمكننا أن نتخيل بطلاً أو شخصية قصصية تفكر وتتفاعل مع أخرى، وتراقب وتحلّل الأوضاع الايديولوجية والاجتماعية، أو تثبت رؤاها إلاّ من داخل المكان ومن خلاله. «ومن ثم انتبه للمكان كوعاء يحتوي الزمن كمركزية يمكن للخيال والذاكرة الانطلاق منها للإمساك بتلك اللحظات الغامضة التي تتشظى فيها الذات وتتصدع في سعيها لامتلاك الوعي بالعالم والأشياء ومجمل العلاقات الأنطولوجية التي تتشابك في النسيج الجمالي».[2]

وعلى الرغم من أن قيمة المكان تختلف من عمل أدبي إلى آخر إلا أنه يعتبر «أحد العناصر الجوهرية التي تساهم في بناء النص القصصي إذ بدونه تتلاشى العناصر الأخرى وتمحّى ضرورته وتأتيه هذه الأهمية القصوى بحكم وظيفته التأطيرية للمساحة التي تقع فيها الأحداث...»[3]

إنّ الفضاء المكاني بامتداداته ومكوناته، يساعدنا على فهم الشخوص التي تقطنه ووضعها الاجتماعي، وتكوينها السياسي والفكري والإيديولوجي، وبالتالي يمكنّنا من أن نفهم مجمل

[1] الصادق قسومة، طرائق تحليل القصة، د.ط، دار الجنوب للنشر، تونس، 2000م، ص 56.

[2] معاوية البلال، قراءة في استراتيجية المعنى، المكان في القصة السودانية الحديثة، مجلة نزوى، ع 22، أبريل 2000م.

[3] أحمد زنيبر، المكان في العمل الفني، مجلة عمّان، أمانة عمان الكبرى، ع 29، آذار 2006م، ص 13.

الأوضاع السياسية والثقافية والاقتصادية كمجتمع من المجتمعات، أو مدينة من المدن... فالإنسان مرتبط بالمكان وهذا المكان له خصوصيته وتاريخه وجماليته أيضا «فالعمل الأدبي حين يفتقد المكانية، فهو يفتقد خصوصيته، وبالتالي أصالته»[1] فالمكان وقاطنه جسد واحد، وأي فصل بينهما، يعني إلحاق الخلل بهما «فلا يمكن فصل الحيز المكاني عن قاطنيه وكذلك لا يمكن فصل الحيز الخيالي عن شخصياته المتحركة ضمن مجاله، فعن طريق الحيز نتعرف على خصوصيات المتحيز فيه، فأي فصل بين الكائن والمكان هو من قبيل الافتراض التعسفي، الذي لا يستسيغه العقل ولا المنطق».[2]

ولعل دراسة "شعرية الفضاء" 1957 لغاستون باشلار (G. Bachlard) هي التي نبهت النقاد والباحثين إلى أهمية المكان في الإبداع الروائي العربي، فكان غالب هلس هو أول الدارسين للمكان، وذلك في كتابه "المكان في الرواية العربية". درس فيه التأثير المتبادل بين المكان والسكان. وأظهر أن المكان ليس ساكنًا، بل هو قابل للتغير بفعل الزمان.

وقد أكّد "هنري متران" على أهمية المكان، عندما جعل الوعي عاملاً فاعلاً في الصيغة الشكلية للمكان، حيث يقول: «المكان هو الذي يؤسس الحكي لأنه يجعل القصة المتخيلة ذات مظهر مماثل لمظاهر الحقيقة»[3]. أي أنّ المكان يؤثر في الشخصية ويقوم بحفزها إلى إيجاد الأحداث.

---

[1] غاستون باشلار، جماليات المكان، ص 6.

[2] لحسن كرومي، جماليات المكان في الرواية المغاربية، بحث قدم لنيل شهادة دكتوراه، جامعة وهران، 2005- 2006م، ص7.

[3] حميد لحميداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، ص 65.

أخيرا يمكن القول أنّ المكان يساهم بشكل أو بأخر في إعطاء نظرة شاملة للأعمال الأدبية، فلا يمكن بأي حال من الأحوال تصور السرد دون مكان أو الأدب خارج علاقته بالمكان.

4. علاقة المكان بعناصر السرد القصصي: (الشخصية، الحدث، الزمن، اللغة).

على الرغم من أن الاهتمام بالمكان قديم إلاّ أن الدراسات المتخصصة بالبحث في مفهوماته حديثة، بدأت مع تأليف "غاستون باشلار" من خلال كتابه الموسوم بـ: «جماليات المكان».[1]

فالمكان لا يعيش بمعزل عن باقي عناصر السرد، حيث لايمكن تصور مكان بمعزل عن الشخصيات، الأحداث، الزمن، اللغة، فهذه العناصر مجتمعة هي مايمنح المكان معنى ودلالة ودونها يظل وعاء فارغا من كل إيحاء.

أ. علاقة المكان بالشخصية :

تتجلى أهمية الشخصية في العمل السردي سواءً كان رواية أو قصة أو مسرحية أو رحلة... الخ من خلال ربطها بالمكان وتفاعلها فيه، فالمكان يمنح الشخصيات هويتها، ولذلك فهناك ارتباط لصيق وعضوي ما بين الشخصية والمكان، فهو محدد لسلوك الشخصيات واتجاهاتها وحركتها.

ويعد المكان الذي يقطنه الشخص ويتحرك ضمنه ويتفاعل معه مرآة تعكس طباعه «وهو يعكس حقيقة الشخصية، وإنّ حياة الشخصية تفسرها طبيعة المكان التي يرتبط بها».[2]

---

[1] ينظر: غاستون باشلار، جماليات االمكان، تر: غالب هلسا، ط2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 1984م.

[2] سيزا قاسم، بناء الرواية، ص ص 114،115.

إنّ علاقة الإنسان بالمكان تتصف بالتلازم والحميمية ذلك لأنّ إدراك الإنسان للمكان هو إدراك حسي مباشر، لأنه مرتبط به طول حياته «كما أنّ إحساس الإنسان بالمكان هو إحساسه بذاته فالذات لا تكتمل داخل حدود ذاتها بل تستنبط خارج الحدود في مكان يمكن أن يتفاعل فيه».[1]

فلا يمكن بذلك فصل الإنسان عن المكان أو المكان عن الإنسان لأنهما يكملان بعضهما البعض ويعبران عن هويتهما كأنهما يشكلان نواة واحدة؛ فالمكان هو الحيز الذي يحتضن عمليات التفاعل بين الأنا والعالم من خلاله نتكلم وعبره نرى العالم ونحكم على الأخر.

وإذا كان المكان «يتخذ دلالته التاريخية والسياسية والاجتماعية من خلال الأفعال وتشابك العلاقات، فإنه يتخذ قيمته الكبرى من خلال علاقته بالشخصية»[2]. وتظهر هذه القيمة في أعلى درجاتها حين يكون المكان جزءا من بناء الشخصية لأن «الذات البشرية لا تكتمل داخل حدود ذاتها، ولكنها تنبسط خارج هذه الحدود لتصنع كل ما حولها بصفتها وتسقط على المكان قيمتها الحضارية».[3]

لا شك أنّ هناك علاقة تأثير وتأثر بين المكان والشخصيات –رئيسية وثانوية– باعتبار أن المكان عنصر أساسي في تشكيل بنية الشخصيات، كما أنّ هذه الأخيرة هي التي تعمل على

---

[1] نبيلة ابراهيم، فن القصة، في النظرية والتطبيق، د.ط، دار القباء، د ت، ص ص 139، 140.

[2] يوري لوتمان، مشكلة المكان الفني، تر: سيزا قاسم، مجلة البلاغة المقارنة، ع 6، 1986م، القاهرة، ص 63.

[3] بدري عثمان، بناء الشخصية الرئيسية في روايات نجيب محفوظ، ط1، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1986م، ص 95.

تشكيله (المكان) وذلك باختراقه، وتجسيد الأحداث فيه، الأمر الذي يؤكد أنّ «المكان حقيقة معاشة ويؤثر في البشر بنفس القدر الذي يؤثرون فيه».[1]

نلاحظ مثلا أنّ هناك شخصية رئيسية ومركزية داخل حيز الرحلة رحلة "ابن حمادوش الجزائري" ألا وهي شخصية "ابن حمادوش الجزائري"، أما الشخصيات الأخرى كشخصية "البناني"، "الورززي"، "محمد الفاسي"... فهي عبارة عن مجموع الأشخاص الذين تقابل معهم ولم تكن لهم حركية وديناميكية في الرحلة.

إنّ التسليم بهذه العلاقة (علاقة التأثير والتأثر) يؤكد أنّ المكان «قطعة شعورية وحسية من ذات الشخصية نفسها».[2] لذا لا غرابة في أنّ الروائي أو الرحالة يلجأ عند تصميم المكان إلى مطابقة هذا المكان مع طبائع الشخصيات ومزاجها، ويجعله كاشفا عن الحالات اللاشعورية للشخصيات، ومساهما في التحولات التي تطرأ عليها، وكأنه هنا يقوم بدور العاكس لمشاعر الشخصيات وأحاسيسها، بل يمكن أن يقوم بدور الشخصية ذاتها «باعتباره تصويرا لغويا يشكل معادلا حسيا ومعنويا للمجال الشعوري والذهني للشخصية.»[3]

من خلال ما تقدم نستنتج أنّ هناك علاقة وثيقة بين المكان والشخصيات، ولا يمكن تصور انفصام هذه العلاقة حيث كل له دور اتجاه الآخر، فالمكان يكشف عن الشخصيات وهذه الأخيرة تعطي للمكان قيمته من خلال تجربتها فيه.

---

[1] يوري لوتمان، مشكلة المكان الفني، ص 83.

[2] المرجع نفسه، ص 132.

[3] بدري عثمان، بناء الشخصية الرئيسية في روايات نجيب محفوظ، ص 132.

ب. علاقة المكان بالحدث :

يعتبر الحدث العنصر الرئيسي في أي نص سردي مهما كان نوعه؛ فهو اللبنة الأولى والركيزة الأساس التي تتمحور حولها بقية العناصر السردية الأخرى، ويرتبط به ارتباطا وثيقا، فالحدث هو الموضوع الذي تدور حوله القصة، إذ يعمد عليه السارد في تنمية المواقف وتحريك الشخصيات، لذلك لابد لجريان هذا الحدث من توفر بيئة مكانية.

إن المكان يمتلك تأثيرا على الحدث من خلال الشخصية، إذ نرى أن وقوع بعض الأحداث يكون أنسب في أمكنة دون أخرى، وذلك لما يوفره المكان من جو ملائم للحدث، لأن كل حدث يقتضي مكان خاصا به في نظر الشخصية. وبالرغم من تأثير الحدث على المكان «إلاّ أن المكان يضل هو الذي يحرك الأحداث وتتوالد من خلاله المشاهد والمواقف، وبالرغم من تعدد شخصياته في الرواية، مما يسمح له باحتواء دلالات نفسية واجتماعية».[1]

وبما أن المكان يشكل أرضية الحدث، فإنه شاهد على كل حدث يجري فيه، حيث نجد أن هذا الأخير يفرض بعض التنقلات في الأمكنة وهذه الأمكنة وتنوعها تنوع الحدث وتحركه، وبذلك يصعب علينا إيجاد نص سردي، تجري أحداثه في مكان واحد.

فعند استعراضنا مثلا لأحداث رحلة ابن حمادوش، نجد أنها تتنوع في أماكن متعددة: مكناس، وتطوان، فاس... وبالتالي فإن تنوع الأمكنة وتعددها، تنوع الأحداث وتحرك الرحلة.

[1] أحمد عوين، أبعاد المكان الفنية في عصافير النيل لإبراهيم أصلان، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية، مصر، 2004م، ص 62. نقلا عن سعدية بن يحي، دلالة المكان في رواية عابر سرير لأحلام مستغانمي، مذكرة لنيل شهادة الماجيستر، جامعة الجزائر، 2007، 2008م.

إن الحدث في الرحلة يختلف بكثير عن الحدث في الرواية لأن هذا الأخير مصطنع من عند المؤلف –الكاتب– والأول واقعي حقيقي، لذا يجب أن يكون محتويا في الحدث يصفه ويعبر عنه ويتماشى مع أحداثه بصفة متلازمة. وسرد الأحداث بحذافيرها، وبما تحمله من تحقيق وتدقيق.

فالأحداث التي يعالجها "ابن حمادوش" في رحلته تعتبر جزءا من التاريخ والواقع الكائن في زمنه، فيعتبر ارتباط "ابن حمادوش" بأحداثه وامتثاله للحياة الاجتماعية وتصويرها لنا بكفاءة ودقة من خلال إلمامه لعادات وتقاليد الجزائر والمغرب... ومن أمثلة ذلك ذكره لبعض عادات أهل فاس: «ثم أن البلاد فرحت كلها وتزينت يوم الخميس، إلا أن زينتهم بثياب ملبوس النساء، يعلقون القفاطين والمحارم وغيرها من خروم حرير وما ييسر، بخلاف زينة بلادنا».[1] وهذا ما يجعل الحدث في الرحلة أكثر ثراء من حيث تعدد الموضوعات والأحداث.

إن المكان يدخل في علاقة مباشرة مع الحدث، فهو عنصر من العناصر المكونة للحدث، بل إن مجرد الإشارة إلى المكان تجعلنا ننتظر قيام الحدث.[2]

أخيرا يمكن القول أنه عندما لا يوجد حدث لا يوجد مكان، فالمكان يؤطر الأحداث، والأحداث ذات صلة وثيقة بالمكان وفضاءات الشخصيات، والأحداث ضمن المكان يعطيها البعد والدلالة.

إذن فالعلاقة بين الاثنين هي علاقة تلازم في جميع الأعمال السردية التي تتطلب الحكي.

[1] عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، تقديم وتحقيق وتعليق أبوالقاسم سعد الله،د.ط، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1983م،ص94.

[2] ينظر، حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص30.

ج. علاقة المكان بالزمن :

للزمن حضور مكثف في الأعمال الأدبية عموما وفي النصوص الرحلية خصوصا، إذ لا حكي بدون الزمن، لأنه يرتبط حتما بالحدث وبالشخصية، وعلى الأخص بالمكان.

لذلك نجد أنّ الزمان قد شغل فكر الإنسان منذ أن وعى بكينونته وبقدر ما يشغله المكان يشغله كذلك الزمن، فأولوه الفنانون والأدباء وحتى الرحالون أهمية كبيرة، واقتنعوا أنّ إدراك ذواتهم لا يتم إلاّ في الزمان والمكان على أساس «أنّ المكان والزمان توأمان لا ينفصلان فهما المشكلان للعقل البشري بكل تفاصيلهما وحقائقهما وتوالدهما».[1]

إن الحديث عن الزمن والمكان في بنية السرد يقتضي التأكيد دوما على العلاقة التي تربط بينهما، كما أنّ دراسة كل منهما منفردًا لا يعني أن تستغني عن دراستهما بوصفهما عنصرين فاعلين مؤثرين في العناصر السردية الأخرى وخاضعين بدورهما للتأثير. فهما عنصران متلازمان لا يفترقان إذ لا يمكن أن تتحسس اللحظة الزمانية دون مكان تفعيلها.

كما أنّ اصطلاح "الزمكان" الذي تمت ترجمته إلى العربية عن ميخائيل باختين يدل دلالة واضحة على «العلاقة الجوهرية المتبادلة بين الزمان والمكان المستوعبة في الأدب استيعابا فنيا».[2] وهي ما يطلق عليها "ميخائيل باختين" اسم "الكرونوتوب"[3] أي تعالق الزمان والمكان.

---

[1] حسن عليان، تداخل الأجناس الأدبية، الرواية والسيرة، سيرة مدينة وشعب دار مجلاوي للنشروالتوزيع،الأردن ،2012،2013م ،ص224. نقلا عن، بالقاسم بالحارث،جماليات المكان في رحلة الحج إلى بيت الله الحرام للحاج ناصر الدين ديني والحاج سليمان بن إبراهيم، مذكرة معدة لنيل شهادة الماجستير،جامعة العقيد آكلي محند أولحاج،البويرة، 2013،2014م، ص108.

[2] مخائيل باختين، أشكال المكان والزمان في الرواية، تر: يوسف حلاق، د.ط، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1990م، ص 5.

[3] ترفيطان تودوروف، باختين ومبدأ الحواري، تر: صالح فخري، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1996م، ص 172.

ورغم أنّ المكان والزمان عنصران متلازمان لا يفترقان فإنّ المكان ثابت على عكس الزمان المتحرك، وهو في ثبوته واحتوائه للأشياء الحسية المستقرة فيه يدرك بالحواس إدراكا مباشرا، ذلك أنّ «المكان صورة أولية ترجع إلى قوة الحساسية الظاهرة التي تشمل حواسنا الخمس»[1] على عكس الزمان يدركه الإنسان إدراكا غير مباشر من خلال فعله فيه.

لقد تعددت في النص الرحلي الذي نحن بصدد دراسته الأطر الزمانية، لتعدد الأمكنة، فمن مكان الانطلاق إلى أمكنة العبور إلى أمكنة الوصول ثم أمكنة الرجوع، غير أنه وفي قناعتنا الشخصية يبقى المكان دائما هو الطاقة الطاغية في الأدب الرحلي، لأنّ الرحالة يفكر في بادئ أمره في المكان الذي يصوب إليه، ثم يرشح الزمن المناسب للرحلة ويختار مرافقيه.

على الرغم من الانفصال الظاهري للمكان والزمان، فإنّ المنطق والعلم يأبى التسليم بافتراق أحدهما عن الأخر، كما أنّ إدراك الشخصية الإنسانية لهذه الثنائية يختلف، حيث يدرك الزمان بالإحساس النفسي، والمكان بالإدراك الحسي، ويبدأ «بخبرة الإنسان بجسده هذا الجسم هو المكان»[2]، إلاّ أنّ علاقتهما تكاملية وطيدة فبانصهارهما في بوتقة واحدة تتحقق للحدث قيمته الواقعية.

د. علاقة المكان باللغة :

إن علاقة المكان باللغة علاقة متينة؛ فهي التي تُعَّرف بمعالمه، وثبت فيه الحياة، و«بغير اللغة يستحيل المكان إلى صورة أو شيء مرئي يحتاج كمن يرسمه بالألوان والخطوط، لكن اللغة

[1] يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ط5، دار المعارف، القاهرة، 1986م، ص 222.

[2] سيزا قاسم وآخرون، جماليات المكان، ط2، دار قرطبة، الدار البيضاء، المغرب، 1988م، ص 594.

بما لها من قدرة على الإيحاء والتعبير عن الإحساس، تستطيع أن تقدم المكان في صور يتحد فيها الزمن بالحدث... بالرؤية الذاتية سواء كانت رؤية الكاتب أم الراوي».[1]

ومن هنا تتبدَّى سردية المكان؛ لأنه بنية مهمة من بنياته الفنية المتعدّدة، وهو بحاجة كمن يرسم معالمه الباهتة، والسارد هو الذي يقوم بهذا الفعل من خلال وصفه ورسم جمالياته بدقة.

إن المكان يتشكل من خلال اللغة الواصفة لجزئياته وتفاصيله، والتي تكشف عن بعض جمالياته. ولا يتشكل الحوار إلاّ في صلبه، لدى تبدو علاقتهما أكثر متانة، ويؤثر المكان في نحو الحوار وتطوره ويشكل المكان فضاء تتفاعل فيه عناصر الرواية، وتجمع اللغة الحوارية تلك العناصر، و«يصطلح الحوار بوظيفة الكشف عن الأماكن المرئية وغير المرئية، فبواسطته يظهر المكان ويظهر تأثيره في الشخصيات».[2]

وغالبا ما يعتمد المؤلف إخفاء العديد من العناصر المكانية، فتتجلى من خلال الكلام بين المتحاورين، ومن هذا المنطلق يصبح من وظائف الحوار والسرد الكشف عن جمالية المكان وتحديد بعض ملامحه وحدوده بدقة، وتتحقق هذه الوظيفة من خلال الوصف، حيث يقوم السارد بوصف بعض الأماكن أو الشخصيات التي وقع فيها الحدث الروائي، ويشمل الوصف الأشخاص وصفاتهم وطبائعهم.

ومن أمثلة ذلك وصف ابن حمادوش في رحلة "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال" لأحد شيوخه –أحمد بن المبارك– يقول: «وفي هذا اليوم لقيت سيدي أحمد بن المبارك،

---

[1] إبراهيم خليل، بنية النص الروائي، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون (منشورات الاختلاف الجزائر)، بيروت، لبنان، 2010م، ص 164.

[2] قيس عمر محمد، البنية الحوارية في النص المسرحي، ناهض الرمضاني أنموذجا، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2012م، ط1، ص 96.

لقيت رجلا عظيمًا عند كافة أهل البلد، حفيف النفس، حصر المنطق، نحيف الجسم، حسن الملاقاة، كأن به قبل أو حول، فسألته القراءة ففرح بذلك فرحًا شديدا»[1] فابن حمادوش كان شديد الاهتمام بذكر كل الشيوخ والعلماء الذين لقيهم وتعرف عليهم وحتى الأشخاص الذين لم يحسنوا معاملته.

فالحديث عن اللغة السردية الموظفة في متن الرحلة –رحلة ابن حمادوش الجزائري– يعودنا حتما إلى الحديث عن الأسلوب، هذا الأخير الذي يعرف الكاتب، ويميز بينه وبين غيره من الكتاب لأن «اللغة جواهر منثورة منشورة، والأسلوب عقد منتظم منها»[2]، أي أن اللغة ظاهرة إنسانية عامة أو مشتركة بينها الأسلوب الخاص، ولهذا فهو يختلف من كاتب لأخر.

إن الوصف يتناول الأشياء فيرسمها بواسطة اللغة، وهو عنصر أساسي في النصوص السردية، فإذا كان السرد يروي الأحداث في الزمان فإن الوصف يصور الأشياء في المكان.

وقد جاء في معجم السرديات: «أن الوصف نشاط فني يمثل باللغة الأشياء والأشخاص والأمكنة وغيرها وهو أسلوب من أساليب القص يتخذ أشكالا لغوية كالمفردة والمركب النحوي والمقطع»[3]. فالوصف بنية مهمة تلازم المكان والأشخاص، وهو يدخل ضمن اللغة الحوارية.

استنادا إلى ما تقدم يمكن القول أن اللغة عنصر مهم في الخطاب السردي، وبواسطتها يتشكل المكان الروائي وتبرز جمالياتها المختلفة، فيغدو بذلك هذا المكان حيزا له سماته وخصائصه وأبعاده المميزة وتفاصيله المحددة.

---

[1] عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري ، ص 83.

[2] عبد المالك مرتاض، الكتابة من موقع العدم، مساءلات حول نظرية الكتابة، د ط، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2003م، ص 89.

[3] محمد القاضي ومجموعة من المؤلفين، معجم السرديات، ط1، دار محمد علي للنشر، لبنان، 2010م، ص 472.

المبحث الثاني:أدب الرحلة: المفهوم، النشأة، الخصائص الفنية، والأنواع.

تمهيد:

إن وجود الإنسان على هذه الأرض، يفرض عليه أن يكون دائم الحركة، كثير التنقل، وإن لاقى في ذلك الجهد والعناء، وكابد الآلام والشقاء، فتلك طبيعة حياة البشر ومتطلبات الحياة. والرحلة في أبسط مفهوم لها هي قطع مسافة معينة بين نقطتين في فترة زمنية محددة، وهذا ما يؤكد عليه كثير من المهتمين بدراسة الرحلات أي أن يكون لها نقطة انطلاق معلومة (من) ونقطة وصول محددة (إلى).

ومن المعلوم أن الرحالة عند قطعه هذه المسافة، لابد أن تتخلله مناظر مختلفة وأحداث متنوعة، يلتقي فيها بنماذج من البشر، تختلف عاداتهم وتقاليدهم، وقد تتباين لغاتهم وثقافتهم، بتواصل معهم، يأخذون عنه تارة فيؤثر فيهم، ويأخذ عنهم تارة أخرى فيتأثر بهم، وبذلك تتسع ثقافته، وتتدعم تجاربه، فالرَّحالة وهو ينتقل من مكان إلى أخر أثناء رحلته، يهتم في نفس الوقت بتسجيل ملاحظاته عن مظاهر مختلفة في الحياة، يشاهدها عيانا أو يسمعها من الآخرين وعليه فإن للرحلة فوائد متعددة، تساعد الرحالة في بناء شخصيته وتدعيم تجاربه، وتوسيع خبراته في الحياة.

فالرحلة بهذه الصورة التي وضحناها، لا تخرج في حقيقة الأمر عما يوضحه الرسم البياني التالي:

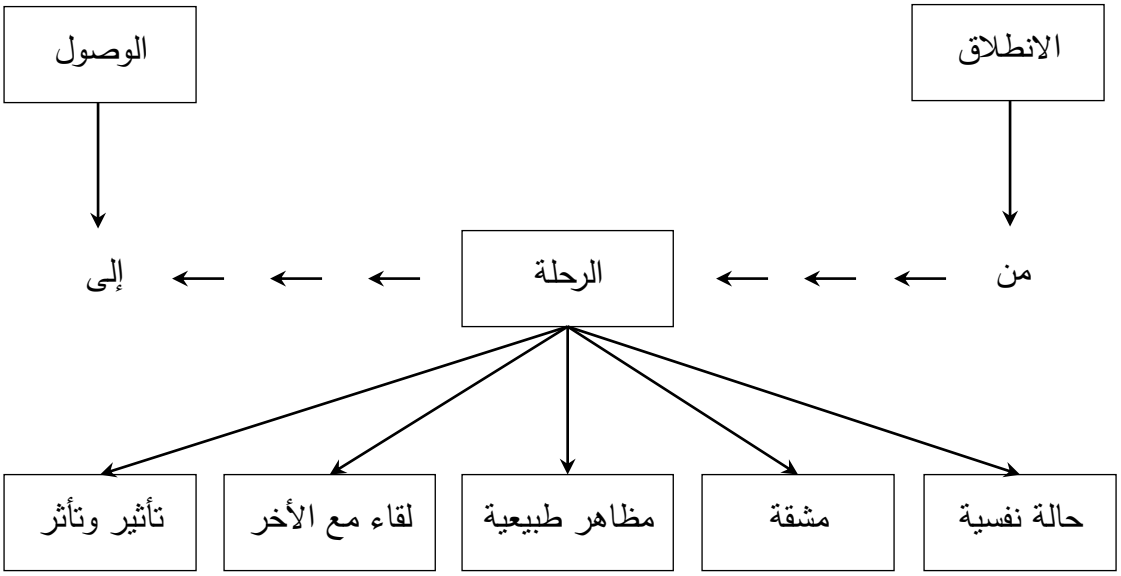

1. مفهوم الرحلة :

لقد اختلف الدارسون في تعريف الرحلة وذهبوا في ذلك مذاهب شتى، كل نظر إليها من زاوية نظر محددة –أي من خلال حقله الدراسي– فالمؤرخ ركز على ماله صلة بالجانب التاريخي فيها، أما الجغرافي لم ير فيها إلاّ ما له علاقة بعلم الجغرافيا، بينما نظر إليها دارسوا الأدب ونقاده نظرة فنية وأدبية من خلال ما تحمله من نصوص شعرية ونثرية، فاختلفت بذلك وجهات نظرهم، وتعددت تعريفاتهم لها، إلا أن بنيتها الأساسية –بنية السفر– بقيت القاسم المشترك بينهم –لكن لتوضيح الرؤيا أكثر علينا أن نحاول الإلمام بمفهوم الرحلة من جوانب عدة، في مقدمتها: ما المقصود بالرحلة لغويا؟ وما المعاني والمقاصد التي وردت فيها في المعاجم العربية ثم نذهب إلى مفهومها اصطلاحيا.

أ. الرحلة لغة:

لقد حظيت مادة "رَحَلَ" بشرح واف في العديد من المعاجم العربية فقد جاء في "لسان العرب لابن منظور" ما يلي: «الترحُّل والارتحال: الانتقال وهو الرِّحْلَة والرُّحلة، والرِّحْلَة: اسم للارتحال للمسير... ورَحَلَ فلان وارتحل وترْحَّل... وقال بعضهم: الرِّحْلة الارتحال، والرُّحلة، بالضم، الوجه الذي تأخذ فيه وتريده.»[1]

نفهم من هذا التعريف اللغوي، أن لفظة الرحلة، أخذت منحى دالا على السير والتنقل وقال "الفيروز أبادي" في "القاموس المحيط": «ارْتَحَلَ البَعيرُ: سارَ ومضَى، والقومُ عن المكان:انْتَقَلُو، كَتَرَحَّلُوا، والاسمُ: الرُّحْلَةُ، بالضم والكسر، أو بالكسر: الأرْتِحَالُ، وبالضم: الوجه الذي تَقْصِدُهُ، والسَّفْرَةُ الواحدةُ.»[2]

من خلال ما ذكرناه آنفا في معنى الرحلة، وجدنا أن الرحلة جاءت بمعنى السير والانتقال والوجهة أو المقصد الذي يراد السفر إليه.

أما فيما يخص المعاجم الأخرى فتكاد تكرر المعاني نفسها.

ب. الرحلة في القرآن الكريم والسنة النبوية :

وردت لفظة رحلة في القرآن الكريم مرة واحدة في "سورة قريش" في قوله جلا وعلا: «لإِيلافِ قُرَيْشٍ (1) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (2) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن

[1] ابن منظور، لسان العرب (مادة رحل)، ج5، ص 166.

[2] مجد الدّين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، القاموس المحيط (مادة رحل)، ص 1005.

جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (4)»[1] ففي هذه السورة ارتبطت الرحلة بالتجارة، والتي كان يقوم بها أهل مكة صيفا إلى اليمن وشتاءً إلى الشام.

أما المفردات الواردة في القرآن الكريم على الحركة والانتقال فهي كثيرة ومتعددة نذكر منها:

منها ما وردت بمعنى السير كقوله تعالى: «قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ»[2].والملاحظ في الآية أن الدعوة للسير في الأرض والانتقال فيها، جاءت مقرونة بالبحث –ولو بالتلميح– على توظيف العقل من خلال ضرورة الاعتماد على النظر والتدبر في أمور وأموال وعواقب الأمم السابقة للاستفادة وأخذ العبرة.

كما وردت أيضا بمعنى الضرب والسفر كقوله تعالى: «وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا»[3] وقوله أيضا: «وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ»[4] وغيرها من المفردات الواردة كالهجرة، الحج... إلخ.

أما إذا عرجنا على السنة النبوية الشريفة نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يشجع أصحابه على الرحلة ويحثهم عليها بغية طلب العلم، ونشر الإسلام، وكذا التأمل في هذا الكون والتدبر في آيات الله تعالى وكشف كنوزه، ومن أحاديث الرسول –صلى الله عليه وسلم– التي

[1] سورة قريش، الآية: 1–4.

[2] سورة الأنعام، الآية: 11.

[3] سورة النساء، الآية: 101.

[4] سورة البقرة، الآية: 185.

يحث فيها على الرحلة لطلب العلم نذكر: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلة الله عليه وسلم «...منْ سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة.»[1]

ج. الرحلة اصطلاحا:

لقد تعددت مفاهيم الرحلة في الاصطلاح إلاّ أنها تصب كلها في قالب واحد، فقد عرفها بطرس البستاني بأنها: «انتقال واحد –أو جماعة– من مكان إلى مكان أخر كمقاصد مختلفة وأسباب متعددة.»[2] معنى ذلك ان الرحلة لا تكون من دون غرض معين، وإنّما تكون دائما لها دافع معين.

أما الامام الغزالي فيعرفها: «بأنها نوع مخالطة مع زيادة تعب ومشقة.»[3]

من خلال هذا القول نستنتج أن الرحلة عبارة عن احتكاك بالأخر إضافة إلى الجهد والتعب الناتجان عن الانتقال.

في حين يعرفها "صلاح الدين الشامي" بقوله: «إنجازا أو فعلا أو مباشرة كما يعنيه، أو يقتضيه أمر اختراق حاجز المسافة، أو إسقاط الفاصل الحاجز بين المكان الذي تبدأ منه، والمكان الذي تنتهي إليه.»[4]

من خلال تحديدنا مفهوم الرحلة في اللغة وفي الاصطلاح تبين لنا أن المفهومين لا يبتعدان كثيرا، فهما يشتركان في معنى واحد وهو الحركة، وهذه الحركة يحقق منها الإنسان فوائد عدة.

---

[1] الإمام أبي الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، ج 3، ص 208.

[2] بطرس البستاني، دائرة المعارف، د.ط، مطبعة المعارف، بيروت، 1884م، مج 8، ص 564.

[3] أبي حامد أحمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1986م، ج2، ص 273.

[4] صلاح الدين علي الشامي، الرحلة عين الجغرافيا المبصرة في الكشف الجغرافي والدراسة الميدانية، ط2، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1999م، ص 11.

بعد أن حددنا مفهوم الرحلة في الاستعمال اللغوي والاصطلاحي سنحاول تحديد مفهوم أدب الرحلة باعتباره فنا من فنون النثر، وعلى الرغم من تعدد المفاهيم، والتي تختلف من دارس إلى أخر إلاّ أنها في النهاية تصب في قالب واحد.

جاء في معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب أن أدب الرحلة هو: «مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، ولتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد.»[1]

نستنتج أن أدب الرحلة حسب تحديد مجدي وهبة هو تلك المؤلفات التي تتحدث عن مغامرات واقعية قام بها الرحالة، وتعرف من خلالها على أحوال البلاد التي زارها وعادات أهلها وسلوكهم، والتي تركت في نفسه انطباعات عدة، ذلك أن الرحالة وهو يجوب مختلف الأقاليم بتأثر بما يلاحظه ويسمعه من مظاهر مختلفة.

أما ناصر موافي فيعرفه بأنه: «ذلك النشر الذي يصفه رحلة –ورحلات– واقعية، قام بها رحال متميز موازنا بين الذات والموضوع، من خلال مضمون وشكل مرنين، بهدف التواصل مع القارئ والتأثير فيه.»[2]

من خلال هذه التعريفات يمكن القول أن أدب الرحلة فن نثري يقوم على رحلة قام بها شخص في الواقع، فينقل للقارئ مشاهداته وانطباعاته التي تركتها الرحلة.

---

[1] مجدي وهبة، كامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984م، ص 17.

[2] ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي (حتى نهاية القرن الرابع الهجري)، ط1، دار النشر، الجامعات المصرية +مكتبة الوفاء للطباعة والتوزيع، القاهرة، 1995م، ص 41.

2.نشأة أدب الرحلة وتطوره :

عرف العرب الرحلة منذ الجاهلية، نتيجة لطبيعة الحياة البدوية القائمة على التنقل والترحال، بحثا عن الماء والكلأ من جهة، والتجارة والصيد من جهة أخرى. وخير مثال على ذلك المقدمة الطللية لقصيدة زهير والتي تحمل عنوان «أمن أم أوفى دمنة لم تكلم»[1] فهي صورة واضحة وحية للرحلة في شعر الشعراء الجاهليين، لأنها تصف رحلة طويلة في الوديان والجبال والسهول بصورة حية، فبمجرد قراءتها يشعر القارئ وكأنه قام بها.

لقد سجلت الرحلة انتشارا واسعا عند العرب منذ القديم «بلونيها: رحلة الطعائن والرحلة على الناقة (...) كانتشار القبائل في تلك الصحراء أو انتشار الآل والطلول ومواطن النجعة، فطبيعة المجتمع البدوي القائمة على النقلة والرعي وحماية مواطن الغيث وما يتصل بذلك من حروب تقطع وشائع الدم والحلف والحب جعلت من الجاهلي إنسانا عالقا بالأرض في شؤون حياته جميعا».[2]

إلاّ أن هذه الرحلات لا تتخذ شكل أدب الرحلة، وإنّما كانت أحد العناصر الأساسية في بناء القصيدة الجاهلية (المقدمة الطللية، وصف الرحلة، المدح وهو الموضوع الأساسي غالبا.لكن بعد عصر الإسلام اتخذت الرحلة طابعا أخر، إذ «صارت فنا عربيا أصيلا في النثر العربي بسماته التاريخية والجغرافية واهتمامه بحياة الناس وتقاليدهم، وأنماط عيشهم، وبمضمونه الفكري

[1] ينظر: زهير بن أبي سلمى، ديوان زهير بن أبي سلمى، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م، ص-ص 102- 105.
[2] وهب رومية، الرحلة في القصيدة الجاهلية، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1979م، ص ص 19- 20.

والاجتماعي، وأسلوبه الأدبي المتميز».[1]

فإذا تتبعنا مسار أدب الرحلة في الأدب العربي نجده قد مر بمرحلتين أساسيتين هما:

أ.المرحلة الأولى: تمتد من القرن الثالث الهجري إلى القرن الثامن الهجري.

إن أقدم رحلة مدونة في كتب الرحلة في هذا القرن –الثالث للهجرة– رحلة سلام الترجمان، التي قام بها بتكليف من الواثق* إلى بحر قزوين ليشاهد سد يأجوج ومأجوج، وبدأت رحلته عام 227هـ.وقد وصل إلى السد وتفاصيل رحلته موجودة في "المسالك والممالك لابن خرداذبة".

وقد شهد هذا القرن رحالين آخرين نذكر منهم سليمان التاجر الذي يعد رائد أدب الرحلات البحرية، اليعقوبي، ابن خردادبة... وغيرهم.

أما إذا انتقلنا إلى القرن الرابع الهجري فإنه شهد ظهور رحالة كبار من أهمهم المسعودي، الذي ألف "مروج الذهب ومعادن الجوهر" يقول في سبب تأليفه لهذا الكتاب: «فإنا صنفنا كتابنا في أخبار الزمان، وقدمنا القول فيه في هيئة الأرض، ومدنها وعجائبها، وبحارها، وأغوارها، وجبالها، وأنهارها، وبدائع معادنها، وأصناف مناهلها، وأخبار عياضها، وجزائر البحار، والبحيرات الصغار، وأخبار الأبنية المعظمة، والمساكن المشرفة، وذكر شأن المبدأ، وأصل

[1] عمر بن قينة، اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة، دط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، بن عكنون، 1995م، ص 11.

*الواثق بالله: هو أبو جعفر هارون بن المعتصم، بويع بالخلافة عام 227هـ بعد موت أبيه، وتوفي سنة 232هـ، في عمر يناهز ست وثلاثون سنة (لب التاريخ، محمد غنيم، ص94).

النسل، وتباين الأوطان،...»[1] وقد كان اهتمام المسعودي بالرحلة اهتماما بالغا كونه أدرك أهميتها.

وغير ذلك من الرحلات التي اشتهرت في القرن الرابع الهجري نذكر منها: رحلة قدامة بن جعفر، وابن حوقل... وغيرهم ولكل هؤلاء طريقة وأسلوب ونتاج مستقل في رحلاتهم.

أما البيروني فإنه يمثل نقطة التقاطع بين القرنين الرابع والخامس الهجريين من خلال كتابه «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة»[2]وعلى الرغم من جغرافية هذا الكتاب إلا أنه لا يمكن «اعتباره كتابا جغرافيا، بالمعنى الضيق للفظ (...) فالمكانة الأولى عنده تحتلها الحضارة الروحية للهند، وقليل من فصوله الثمانين يمس موضوعات جغرافية بحتة».[3]

فهو ليس كتابا في الرحلات أو الجغرافيا فحسب، وإنّما يتضمن أيضًا آراء في الدين والفلسفة والتاريخ. ومن الرحالة الآخرين في هذا القرن ابن بطلان كان يرتحل من بلد إلى بلد ومن منطقة إلى منطقة طلبا للعلم والمعارف وسعيا لاكتشاف الجديد في الفكر والطلب، وغيره من الرحالة (...).

وإذا انتقلنا إلى القرن السادس الهجري (12م) نجد أن الرحالة غير نمط كتابته فبينما كان مهتما بتسجيل الجوانب الجغرافية المتعلقة بالبلدان التي زارها، انتقل إلى سرد تجربته من خلال

---

[1] المسعودي أبو الحسن، مروج الذهب ومعادن الجوهر، د.ط، موفم للنشر، الجزائر، رغاية، 1989م، ج1، ص 3.

[2] ينظر: البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد، تحقيق ماللهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، د.ط، دائرة المعارف العثمانية، 1985م.

[3] أغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تر: صلاح الدين عثمان هاشم، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987م، ص 297.

ذكره (خصوصياته) (مشاعره، أفكاره...) وبهذا فإن الرحلة انتقلت من الطابع العلمي إلى الطابع الأدبي الذي يتسم أسلوبه بالبساطة والسلامة.

وهكذا أصبحت الرحلات تقدم على شكل سير ذاتية، ومن هؤلاء الرحالين نذكر ابن عربي – وهو من المغرب الإسلامي– «ترك "اشبيليه" في اتجاه المشرق في نحو السادسة عشرة من عمره، غير أن رحلته التي تنسب إليه بعنوان: (الرحلة) أو (ترتيب الرحلة) تعتبر مفقودة».[1]

وبعد أن كان أدب الرحلات محصورا في الشرق الإسلامي –خلال القرن السادس الهجري (12م) فقط تم تعميمه على الغرب الإسلامي مع الإدريسي من خلال مصنفه المسمى "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" والذي امتاز «بغزارة مادته في جغرافية المغرب وصقلية مما يشهد بأنه ساح في تلك الآفاق».[2]

وجاء بعد الإدريسي ابن جبير الأديب والشاعر من خلال رحلته المسماة "تذكرة بالأخبار عن اتفاقيات الأسعار" والمعروفة كذلك برحلة ابن جبير، التي دون فيها كل ما شاهد، ووقع عليه نظره من عجائب البلدان وغرائبها.

أما ياقوت الحموي (ت 626هـ) فكان من أحد الوجوه المضيئة في تاريخ العرب في القرن السابع الهجري (13م) كان رحالة وعالما جمع بين معارف كثيرة وأبحر في علوم عديدة، ومن أهم انجازاته كتاباه "معجم البلدان" وهو من أهم المعاجم الجغرافية ، و"معجم الأدباء".

[1] عمر بن قينة، الخطاب القومي في الثقافة الجزائرية –دراسة–، د.ط، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1999م، ص 10.

[2] زكي محمد حسين، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دط، دار الرائد العربي، بيروت، 1981م، ص 65.

لتقطع بعد ذلك الرحلة شوطا كبيرا في مستواها الأدبي مع ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري (14م) صاحب "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار".[1]

ونجد أيضا في هذا القرن عبد الرحمان بن خلدون، الذي اختلف حوله الكثير من الدارسين، كون رحلته جاءت في ثنايا الحديث عن سيرته الذاتية التي دونها في مؤلفه "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا".[2]

ب. المرحلة الثانية: تمتد من القرن التاسع الهجري إلى بداية النهضة العربية.

لقد عاش العرب فترة ظلام دامس على جميع الأصعدة السياسية والإجتماعية والإقتصادية، ولاسيما العلمية في القرنين التاسع والعاشر الهجريين (15م- 16م) الأمر الذي جعل هذه الفترة عقيمة وراكدة من حيث الرحلات. وقد ذكر فؤاد قنديل عدة أسباب لقلة عدد الرحلات في هذه الفترة منها: تعدد المشكلات السياسية والإقتصادية التي لحقت بالعالم العربي، هذا إلى جانب التراجع الثقافي والحضاري للفرد العربي. كما أن العديد من الدول العربية عانت في تلك الفترة من المشكلات الداخلية وأهمها التفاوت على السلطة في الوقت الذي شهدت فيه هذه الفترة العديد من الكشوفات الجغرافية الغربية، إذ تم اكتشاف العالم الجديد في الأمريكيتين وبداية الصعود الحضاري الأوروبي.[3]

لكن سرعان ما عادت الرحلات العربية إلى النشاط شيئا فشيئا خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجري (17م- 18م). حيث شهد القرن الحادي عشر الهجري (17م) بعض

[1] ينظر: رحلة ابن بطوطة، تح: كرم البستاني، دط، دار بيروت للطباعة والنشر، 1980م.

[2] ينظر: ابن خلدون عبد الرحمان ابن محمد، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، تح: محمد ابن ثاويت الطنجي، ط2، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2006.

[3] ينظر: فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، ط2، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، 2002م، ص 81.

الرحلات نذكر منها –ومن المغرب العربي تحديدا– رحلة العياش المسماة بـ "ماء الموائد" والمعروفة بالرحلة العياشية، وهي رحلة حجازية.

ومن رحلات القرن 17م كذلك نذكر رحلة "أحمد المغرب التلمساني"، وهي رحلة غير مطبوعة (مخطوط) تحمل عنوان "رحلة في المشرق والمغرب"[1] أما إذا انتقلنا إلى القرن 12هـ (18م) نجد أن نشاط الرحلة أخذ في البروز أكثر، ومن رحلات القرن الثامن عشر الميلادي نذكر رحلة ابن عمار المعروفة بـ "نحلة اللبيب في أخبار الرحلة إلى الحبيب". وقد جعل الرحلة في ثلاثة أقسام مقدمة، عرض (الرحلة)، الخاتمة.

بالإضافة إلى رحلة الورتلاني، والتي تحمل عنوان "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"[2]. إذ تعد موسوعة أخبار عن جزء كبير من العالم الإسلامي في هذا القرن. ونختم هذا القرن برحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة بـ "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال" فقد كانت لغرض العلم من جهة، وللتجارة من جهة أخرى، والرحلة في أجزاء إلا أن الجزء الأول منها ضاع، كما قد تكون هناك أجزاء تلت الجزء الثاني وقد ضاعت كذلك. لأن الرحالة ابن حمادوش عاش لسنوات بعد الرحلة الثانية. ومما يدل على وجود الجزء الأول من الرحلة تلك الإشارات التي كان يوردها في الجزء الثاني ومنها قوله: «وقد تقدم في الجزء الأول».[3]

---

[1] ينظر: سميرة انساعد، صورة المشرق العربي من خلال رحلات الجزائريين في العصر العثماني، مجلة التراث العربي: مجلة فصيلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ع 97، السنة 24 آذار 2005م، ص 107 وما بعدها.

[2] ينظر: الورتلاني سيدي الحسين بن محمد، الرحلة الورتيلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، ط1، تقديم محمد بن أبي شنب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ج1، 2008م.

[3] عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري،رحلة ابن حمادوش الجزائري، ص 126.

وإذا انتقلنا إلى القرن الثالث عشر الهجري (19م) سنجد أن الرحلة قد شهدت نشاطا كبيرا وذلك بفعل عوامل نذكر منها احتكاك العرب بالغرب الوافد إلى بلدان عربية، خاصة مع حملة نابليون بونبارت على مصر عام 1798م. والتي تعد مؤشرا لبداية النهضة العربية الحديثة. ومن رحالي المغرب العربي في هذه المرحلة نذكر رحلة "خير الدين التونسي" باتجاه أوروبا. والرحالة حرر رحلته في كتاب سماه "أقوام المسالك في معرفة أحوال الممالك"[1]. أما في الجزائر فنجد عدة رحلات نذكر منها رحلة الحاج الدين الأغواطي المسماة "رحلة الأغواطي في شمالي إفريقية والسودان والدرعية".[2]

وإذا انتقلنا إلى القرن العشرين وجدنا مجال الرحلة يزداد ويتسع، واتجاهاتها تنمو وتتعدد، خاصة الرحلات الجزائرية داخلية كانت أم خارجية. فأما الرحلات الداخلية فنسجل عدة رحالين، نذكر منهم "ابن باديس" والذي سجل له خمس رحلات شملت العديد من المدن الجزائرية منها (للتعاون والتذكير، رحلتنا إلى العمالة الوهرانية[3]...إلخ)، أما الرحلات الخارجية فنذكر منها: رحلة محمد البشير الإبراهيمي إلى مصر وباكستان المسماة "رحلتي إلى الأقطار الإسلامية"[4]. ورحلة أبو القاسم سعد الله المسماة "رحلتي إلى الجزيرة العربية"[5]... وغيرهم من الرحلات.

---

[1] ينظر: خير الدين التونسي، أقوام المسالك في معرفة أحوال الممالك، تح: المنصف الشنوفي، ط2، شركة أوريس للطباعة، تونس، مج 1، 2000م.

[2] للاطلاع على الرحلة ينظر: أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ط2، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1990م، ج2، ص 243- 248.

[3] للاطلاع على هذه الرحلات ينظر: عبد الحميد ابن باديس: حياته وآثاره، جمع ودراسة: عمار طالبي، ط1، الشركة الجزائرية، الجزائر، 1968م، ج4، ص 297، 324.

[4] للاطلاع على الرحلة ينظر: محمد البشير الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي (1952- 1954م)، ط1، الغرب الإسلامي، بيروت، 1997م، ج4، ص 18- 23.

[5] للاطلاع على الرحلة ينظر: أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، دط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م.

أخيرا يمكن القول أن أدب الرحلة العربي يشكل مادة قيمة وضخمة، وبما أنه لا يمكننا أن نقف عند كل رحلة على حدة ارتأينا أن نقدم عناوين بعض الرحلات وأصحابها سواء كانت مشرقية أو مغربية دون الوقوف عند النقاط العريضة فيها، كما أن اقتصارنا على ذكر بعض الرحلات دون غيرها راجع إلى كون هؤلاء الرحالة كان لهم تأثير على الوطن العربي كله من خلال ما دونوه.

3. الخصائص الفنية للرحلة:

تتميز الكتابة الرحلية بجملة من الخصائص الفنية التي تميزها عن الأجناس النثرية الأخرى وهذه الخصائص هي:

أ. **هيمنة بنية السفر**: التي تؤطر الأحداث وتنظمها.

ب. الذاتية:

تحضر ذات الرحالة في رحلته حضورا بارزا، وليس هذا بمستغرب، مادامت الرحلة حكيا لسفر قامت به هذه الذات.

فالراوي في الرحلة هو المؤلف ذاته، وهذه إحدى خصائص الكتابة الرحلية، وهذا الراوي يكون حاكيا وموضوعا للحكي، فهو حاكيا عندما يصف، ويكون موضوعا للحكي عندما يسرد، وبهذا يقدم الراوي معرفة موضوعية أثناء الوصف، كما يقدم تجربة ذاتية أثناء السرد.[1]

[1] ينظر عبد النبي ذاكر، عتبات الكتابة، مقاربة لميثاق المحكي الرحلي العربي، دط، منشورات مجموعة البحث الأكاديمي في الأدب الشخصي، المغرب، 1998م، ص 34.

ج. الحكي بضمير المتكلم مفردا أو جمعا:

وهذا تجلي من تجليات الذات في أسلوب الكتابة حيث نلاحظ في رحلة ابن حمادوش والتي هي موضوع دراستنا أن التركيز على الذات يسيطر فيها بصورة واضحة، حيث نجد له مداه داخل المتن الرحلي، من خلال تجليات وبروز "الأنا" بشكل بارز. وفي بعض الأحيان مبالغ فيه. بتوظيف ضمير الجماعة تارة، وضمير المفرد تارة أخرى، كقول ابن حمادوش«وفي هذه الساعة كنا على ظهر البحر، قريبا من غرناطة، وكان عاشر خروجنا من الجزائر، الاثنين حادي عشرتنا "هكذا" ويوم الأربعاء سادس عشر فبراير ألقينا المراسي بجبل طارق ونحن على وجل»[1] ثم ما يلبث بعد ذلك بتغير "الأنا" من ضمير الجماعة إلى ضمير المفرد فيقول: «ونزلت في فندق السرايري في بيت مقابلة عين الشمال، كراؤها ستة عشر موزونة في كل شهر»[2]

د. الواقعية:

الرحالة الراوي رجل واقعي عاش في فترة زمنية معروفة، والأشخاص الذين يتحدث عنهم، هم أيضا واقعيون عاشوا في زمن معروف ومكان معروف، فالأماكن التي يصفها أماكن حقيقية لها وجود فعلي على الأرض، وبهذه الخاصية تتميز الرحلة عن الرواية والمقامة... المبنيين على الخيال.

هـ. دور الخطاب بالرجوع إلى نقطة الإنطلاق:

فالخطاب يبدأ مع انطلاق الرحّالة من موطنه، ويسير معه إلى المكان المقصود، ويعود إلى نقطة الانطلاق، وهكذا يدور الخطاب مع السفر، وينتهي من حيث بدأ.

---

[1] عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري، ص 30.

[2] المصدر نفسه، ص 32.

وبما أن خطاب الرحلة موضوعه هو السفر الذي قام به الرحّالة فإن «خطاب الرحّالة يتماهى مع الرحلة وعوالمها، ويسعى إلى مواكبتها من البداية إلى النهاية، فهو يبتدأ بتحديد أسباب الرحلة ودوافعها، وزمن الخروج ومكانه وكلما انتقل الرحّالة في المكان واكب الخطاب هذه التحولات، وصولا إلى النهاية (نهاية الرحلة) والرجوع إلى نقطة الانطلاق، وبهذه المواكبة يكون خطاب الرحلة عملية تلفيظ لفعل الرحلة. وبعملية التلفيظ هاته يختلف خطاب الرحلة عن غيره من الخطابات المجاورة التي تقوم على أساس فعل الرحلة، ولكنها تستمر جوانب منها، وتوظفها في خطاب مختلف.»[1]

وهكذا تكون طريقة بناء الخطاب وسيلة لتميز خطاب الرحلة عن غيره من الخطابات.

و. تعدد المضامين وتداخل الخطابات:

تزخر الرحلات بالعديد من المعارف المتنوعة، منها ما هو ديني، وما هو تاريخي، وما هو جغرافي، وما هو أدبي، وما و اجتماعي... وغير ذلك، مما يجعل هذه الرحلة قبلة للعديد من الباحثين مختلفي المشارب؛ من أجل منع المعارف التي تهمهم، والرّحالة وهو يقدم هذه المعارف، إنّما يسعى إلى إفادة القارئ بما يظنه مقيدا له. والمعرفة التي يقدمها الرحّالة تخضع لشخصيته وتكوينه الثقافي، وهكذا نجد الرحّالة المؤرخ يولي اهتماما أكبر للمعرفة التاريخية والمتصوف يعتني كثيرا بالمعرفة الصوفية وهكذا دواليك.

كما تتداخل فيه خطابات مختلفة نذكر منها:

[1] سعيد يقطين، السرد العربي، مفاهيم وتحليات، ط1، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006م، ص 20.

1. السرد:

لا تنفك الكتابة الرحلية عن السرد، ولا يمكن أن تستغني عنه مادامت تنقل إلى المتلقي أحداثا وأفعالا قامت بها الذات الكاتبة، وهذه الأحداث والأفعال هي الانتقال من نقطة الانطلاق ثم العودة إليها. ومن الأمثلة الواردة في الرحلة "رحلة ابن حمادوش" عن السرد نذكر ما يلي: «وذلك أن الباشا أحمد بن عبد الله الريفي كثر ماله وتجبر في نفسه وطغى على عباد الله حتى قرر المكوس كأنها سنة، ثم من تجبره أراد أن يدعي لنفسه، فلم يمكنه ذلك لأن عادة أهل المغرب لا يطيعون إلاّ الأشراف»[1]. فصاحب الرحلة هنا يسرد لنا الأسباب التي أدت إلى قيام الثورة في المغرب العربي، حيث أن الباشا أحمد الريفي تجبر وكثر ظلمه للناس حتى قرر المكوس (الضرائب)، وبعد كل ذلك أراد السلطة لنفسه، فلم يتمكن من ذلك، لأن أهل المغرب لا يخضعون إلاّ للأشراف وهو ليس منهم.

2. الوصف:

إن الوصف يتطلب انتباهًا ودقة ملاحظة من الواصف لكي «يستوعب أكثر معاني الموصوف، حتى كأن يصور الموصوف لك، فتراه نصب عينيك.»[2] والموصوف الذي لفت نظر الرحالة هو الأشياء الغريبة وغير المألوفة لديه، وتبعا لهذا ستختلف الموصوفات في الرحلات حسب الأوساط التي عاش فيها الرّحالة وما ألف مشاهدته فيها، لأن المألوف معروف لا يحتاج الرحالة إلى إعادة التعريف به. يقول ابن حمادوش في وصف أحد شيوخه –أحمد بن مبارك– «وفي هذا اليوم لقيت سيدي أحمد بن المبارك، لقيت رجلا عظيما عند كافة أهل البلد،

[1] عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري، ص 75.

[2] أبو هلال العسكري، كتاب الصناعين الكتابة والشعر، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1986م، ص 128.

خفيف النفس، حلو المنطق، نحيف الجسم، حسن الملاقات، كأن به قبل أو حول، فسألته القراءة ففرح بذلك فرحًا شديدًا»[1]

3. الشعر:

نجد كثيرا من الرحلات تطفح بالكثير من الأشعار المختلفة المضاهية، والمتفاوتة في القيمة الفنية، وهذه الأشعار إما من إبداع الرحّالة أو من إبداع غيره من الماضين أو المعاصرين الذين ينشدهم وينشدونه. ومن أمثلة ذلك مرثية "ابن حمادوش" في ابن المبارك يقول في مطلعها:

أَفَلْتِ يَا شَمْسَ الغَرْبِ فِي حَجْبِ الثَّرَى وَأَبْقَيْتِ فَاسًا فِي الظَّلَامِ وَفِي الغَمِّ.[2]

4. أنواع الرحلات:

يقسم المهتمون بأدب الرحلة الرحلات إلى أقسام أو أنواع تختلف باختلاف هذه الأخيرة، وقد اختلف الدارسون في تصنيفها. فصلاح الدين الشامي يحصرها في ستة أنواع وهي: رحلة التجارة، رحلة الحرب، رحلة السفارة. وهذه الرحلات الثلاث ظهرت قبل الإسلام. أما الرحلات الثلاث الأخرى التي ظهرت بمجيء الإسلام وأضيفت إلى قائمة الرحلات فهي: رحلة الحج، رحلة طلب العلم، ورحلة التجوال والطواف.[3]

أما محمد الفاسي فقد جعلها خمس عشر نوعا. ولكن هناك تداخلا بينها كالرحلة الدراسية والرحلة العلمية، وكذلك بين الرحلة الرسمية والسفارية و... وهذه الأنواع هي: الرحلة الحجازية، الرحلة السياحية، الرحلة الرسمية، الرحلة الدراسية، الرحلة الأثرية، الرحلة الاستكشافية، الرحلة

[1] عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري، ص 83.

[2] المصدر نفسه، ص 87.

[3] ينظر: صلاح الدين الشامي، الرحلة عين الجغرافيا المبصرة في الكشف الجغرافي والدراسة الميدانية، ص 114 وما بعدها.

الزيارية، الرحلة العلمية، الرحلة المقامية، الرحلة الدليلية، الرحلة الخيالية، الرحلة الفهرسية، الرحلة العامة والرحلة السفارية.[1]

أما نحن فسوف نركز على أكثر الأنواع شيوعا وخاصة على أنواع الرحلات الجزائرية في العهد العثماني بالتحديد. باعتبار أن موضوع دراستنا "رحلة ابن حمادوش" في هذا العهد.

أ. الرحلة الحجية:

الرحلة الحجية أو الحجازية أو الدينية، كما يحلو للبعض تسميتها، هي تلك الرحلة التي يتجه من خلالها صاحبها إلى البقاع المقدسة بنية أداء فريضة الحج، إنها رحلة تشد فيها الرحال إلى مكة المكرمة من أجل إتمام الركن الخامس من أركان الدين، وهي ليست كغيرها من الرحلات باعتبارها ذات علاقة بعقيدة الإنسان ودينة، وهي رحلة مفروضة على كل قادر عليها من المسلمين، فالحج لمن استطاع إليه سبيلا. لقوله تعالى: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاَ»[2].

إن هذا النوع من الرحلات يعتبر الأكثر هيمنة على الرحلات الجزائرية خلال العهد العثماني بل عبر مختلف فترات التاريخ التي تلت الفتح الإسلامي وانتشار هذا الدين في المنطقة، فالجزائريون على غرار أهل المغرب العربي عموما، عشقوا البقاع المقدسة وتعلقت قلوبهم بها، فشدوا الرحال نحوها رغم بعد المسافة، وأهوال الطريق، ومشقة السفر، إلا أن ذلك لم يقف في وجه الراغبين في تأدية الركن الخامس، بل إنه كان مفجرا للأشواق، ومحركا للعواطف الجياشة نحو هذا المكان المقدس.

---

[1] ينظر: محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير في فكاك الأسير، تح: محمد الفاسي، دط، المركز الجامعي للبحث العلمي، المغرب، د ت، ص خ–ز (المقدمة).

[2] سورة آل عمران، الآية: 97.

وتعد الرحلة الورتلانية للورتلاني المسماة "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"[1] إلى الديار المقدسة من أهم الوثائق التاريخية التي تؤرخ لفترة العهد العثماني، وترسم صورة الحياة فيه –في الجزائر وفي الوطن العربي– ويبدو أن الورتلاني ذاته، ومن خلال ما يوحيه له العنوان الذي اختاره لها. «أرادها وثيقة إخبارية للخلف عن تجربة موسم الحج إلى الحج، بما تحمله من معان إيمانية عظيمة، وتجربة روحية عميقة، إضافة إلى ما يتخلل هذه الهجرة الظرفية في سبيل الله من عجائب ومخاطر، ذكرها بالتفصيل في نص الرحلة.»[2]

ب. الرحلة الحركة(الرسمية) :

هي الرحلة التي تتخذ الطابع الرسمي مما يجعلها ذات أهداف ودوافع سياسية بحتة، وعادة ما يشبهها الدارسون بالغزوة أو المسيرة العسكرية، يقوم بها الحاكم ضد المارقين عن القانون أو المتمردين على السلطة المركزية، يتجه نحوهم بجيوشه ليفرض القانون أو ليعيدهم إلى سلطته، ولعل هذا يعتبر المؤشر الأساسي الذي يعطيها شرعية التسمية بالرحلة مادام الأمر فيها يتعلق فيها بالحركة والانتقال في الإطار الزماني والفضاء المكاني الذي يكون دون شك على أطراف الدولة وليس في عاصمتها.

لقد كانت الرحلة الحركة قبل القرن السادس عشر الميلادي تطلق على الأعمال الجهادية خارج حدود السلطة، أما بعد ذلك فإن الرحلة الحركة «أصبحت تعني تلك العمليات الداخلية التي تنظمها السلطة المركزية لإثبات سيادتها على جهة ما من البلاد، ارتباطا بجدلية المركز

[1] ينظر: سيدي الحسين بن محمد الورتلاني، الرحلة الورتلانية نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2008م.

[2] عبد الرحمان عزمي، التواصل القيمي في الرحلة الورتلانية، د.ط، مؤسسة كنوز، الحكمة للنشر والتوزيع، الأبيار، الجزائر، 2011م، ص 10.

الخاضع دوما لسيطرة الدولة، والهامش المتمرد لبعده عن أعين السلطان، وقد ارتبط بهذا التقليد مرافقة السلطان بالإضافة إلى الجيش، كتابه الذين يضطلعون بمهمة تسجيل هذه الحركة.»[1]

إن هذا النوع من الرحلات يعتمد بالدرجة الأولى على خريطة التضاريس، ولا ينجز إلا بعد التخطيط والتحضير، وتهيئة جميع شروط النجاح، ما يعني أنها تشترك مع غيرها من الرحلات من حيث قيامها على القصدية، والقصدية أمرا حتميا بالنسبة للرحلة.

ومن أمثلة هذه الرحلات "رحلة محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي لابن هطال"[2] وهي رحلة داخلية، قادته إلى الجنوب الصحراوي في إطار حملة واسعة مدروسة ومخطط لها، قام بها بعد توليه الحكم لإصلاح شؤون الرعية، والسهر على مصالح العباد، وتنظيم البلاد رغبة منه في أن يبرز شخصيته ويمتن أركان حكمه.

ج. الرحلة الجهادية:

هي رحلة ذات طابع رسمي باعتبار أن اتخاذ القرار بشأنها يكون إلا من سلطة عليا، وتحركها لن يكون وفق خطة محددة ومدروسة، وتحت إشراف سلطة رسمية، وتتخذ هذه الرحلة صفة الجهادية من كونها تتجه نحو عدو كافر، مناقض للمعتقد والدين، يكون قد اعتدى على ثغر من ثغور المسلمين، أو وقف في وجه نشر الإسلام وهو الدين الذي ارتضاه الله للناس دينا، والأكيد أن هذه التسمية هي تسمية إسلامية بامتياز جاءت مقابلة كما كان يسمى من قبل بالرحلة الحربية.

---

[1] أحمد بوغلا، الرحلة الأندلسية، الأنواع والخصائص، ط1، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، المغرب، 2008م، ص 205.

[2] ينظر: أحمد بن هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير من الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تح: محمد بن عبد الكريم، ط1، عالم الكتب، القاهرة، 1969م.

إن صفة الجهادية التي يعرف بها هذا النوع من الرحلات، تضفي عليها عند المسلمين صفة القدسية من منطلق أنها ترتبط بعقيدة المسلم، وبأسمى ما يصبو إليه في الحياة الأخرى بعد رحلة الحياة الدنيا، فالله تعالى قال في محكم تنزيله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (10) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (11) غْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12)»[1]

وتتميز الرحلة الجهادية بطابعها العسكري، الذي يفرض سلطانه عليها وعلى جميع مكوناتها، من البداية إلى النهاية، سواء تعلق الأمر بلغتها، أو وصف شخصيتها، أو في الحديث عن العدة والعتاد فيها، أو حتى في الشروح والتفاصيل التي نجدها في ثنايا صفحاتها، وبين مختلف أحداثها ومحطاتها.

وتعد الرحلة "القمرية لابن زرفة"[2] خير نموذج على الرحلات الجهادية، فهي مبنية على ركيزة أساسية هي الجهاد في سبيل الله، وفي سبيل تحرير جزء من الوطن (استرجاع وهران من يد الإسبان).

د. الرحلة العلمية:

المقصود بالرحلة العلمية، أو على الأصح الرحلة في طلب العلم، تلك الرحلة التي يقوم بها صاحبها بغية طلب العلم وملاقاة العلماء والفقهاء، ومحاورتهم والاستفادة منهم، ويصف فيها الحياة العلمية بصفة خاصة لأن «الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم،

[1] سورة الصف، الآية:10- 12.

[2] ينظر: مختار حساني، تاريخ تحرير مدينة وهران، د.ط، الرحلة القمرية لابن زرفة، تحقيق محتار حساني، جامعة الجزائر، مخبر المخطوطات، ج2، 2003م.

والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علما وتعليما وإلقاء، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة، إلاّ أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما، وأقوى رسوخا، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها (...) فالرحلة في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال.»[1]

ومثل هذا النوع من الرحلات يتقاطع مع غيره من أنواع الرحلات الأخرى، خاصة الحجية والتجارية منها، وهي الرحلات التي كثيرا ما يترصد الرحالة فيها العلم والمعرفة في كل محطة يحل بها من محطاتها، من خلال الجلوس إلى الشيوخ المدرسين، ومقابلة العلماء أو التعامل معهم، رغبة في تنقيح العلوم وتصحيح المفاهيم.

لقد تحدث أبو القاسم سعد الله كثيرا عن الرحلات العلمية حيث نجده يذكر العديد من الرحلات التي قام بها علماء الجزائر كما هو الحال بالنسبة لرحلة "ابن حمادوش الجزائري" التي قام بها المؤلف لطلب العلم والتجارة من مدينة الجزائر إلى تطوان ومكناس وفاس ثم عاد إلى الجزائر من تطوان وقد وصف ابن حمادوش الحياة العلمية وجوانب من الحياة السياسية والاقتصادية في المغرب. وتمتاز هذه الرحلة بكونها مصدرا هاما عن المغرب في هذه الفترة التاريخية –العهد العثماني– وتعود هذه الأهمية للنصوص التي احتوتها من جهة والمشاهدات العينة للأماكن والأحداث التي صادفها، وعلاوة عن هذه الرحلة يشير سعد الله إلى أن هناك العديد من الرحلات الجزائرية الأخرى.

[1] ابن خلدون، عبد الرحمان بن محمد، مقدمة ابن خلدون، تح: درويش جويدي، ط2، المكتبة العصرية، بيروت، 2000م، ج1، ص 539– 540.

الفصل الثاني:

الحبك المكاني في رحلة ابن حمادوش الجزائري

مدخل:

بعد أن تطرقنا في الفصل الأول إلى مجموعة من التعاريف والعناصر التي وضحت لنا الصورة العامة للمكان وكذلك الرحلة، حيث تعرفنا على أنواع المكان وأهميته وعلاقاته بعناصر السرد القصصي، إضافة إلى أدب الرحلة، نشأته وتطوره، والخصائص الفنية للرحلة وأنواعها، الآن سوف نتطرق في هذا الفصل إلى دراسة المكان في رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال".

1. ابن حمادوش وعصره:

عاش ابن حمادوش «(عبد الرزاق بن محمد بن محمد المعروف بابن حمادوش الجزائري) خلال القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي). فقد ولد في مدينة الجزائر سنة (1107هـ-1695م) وتوفي بعد حوالي تسعين سنة في مكان وتاريخ مجهولين ... وكانت أسرته فيما يبدو تمتهن الدباغة »[1] ، ولكن الظاهر لم يستفد منها لأنه لم يتحدث عنها في حياته ولم يذكرها "حرفة الدباغة" إلاّ مع اسم والده وعمه في عقد زواجه وعقد زواج أخته.

يبدو أن ابن حمادوش فقد والده وهو صغير « ذلك أننا لا نجده قد حضر عقد زواج ابنه (عبد الرزاق) الأول الذي كان سنة 1125هـ بينما حضر عقد زواج ابنته سنة 1119هـ والغالب أن يكون الحاج محمد الدباغ ابن حما دو ش (والده) قد توفى بين التاريخين المذكورين »[2]. وما دام والده في الظاهر قد توفي ، فقد كفله عمه «الذي زوجه ابنته وأسكنه منزله ومع ذلك فإن ابن حمادوش لم يتحدث عن هذا الزواج كثيرا وإنما أكثر الشكوى من زواجه الثاني

[1] عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري، ص9 .

[2] أبو قاسم سعد الله، الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري حياته وآثاره، د ط ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م، ص20.

الذي كان سيئ الحظ فيه، وهو مصاهرته لعائلة أمين النحاسين، وبقيت حرفة التجارة ملتصقة به »[1]. إلا أن صاحب الرحلة عاش فقيرا بسبب اهتمامه الشديد بالعلم وإهماله للتجارة .

ذكر ابن حمادوش في رحلته أنه رزق بتوأمين (الحسن والحسين) على الأقل من زوجته الثانية،مات أحدهما صغيرا، ولم يذكر ما إذا كان له أطفال من زواجه الأول، والظاهر أنه لم يكن سعيدا مع زوجته الثانية وقد صرح بذلك في رحلته بعد عودته من المغرب يقول: «فقدمت وجدت من الزوجة مثل ذلك، ولم أرها فرحت بقدومي، لأنها أيقنت أنّ أكثر المال ضاع لي، فلم يبق لها غرض فِيَ، ولم تر لما عندي من العلم».[2]

كما ذكر أيضا في رحلته أنه لم يكن ميسور الحال، فقد كان الفقر يلازمه ومع ذلك لم يترك حلقات العلم والعلماء، رغم المشاكل المادية والعائلية التي تعرض لها.

درس ابن حمادوش على طريقة عصره، « فتلقى مبادئ علوم الدين واللغة، بعد أن حفظ القرآن الكريم على عادة أبناء بلده ولكن مرحلة تعلمه الأولى لا تزال مجهولة ...غير أنه يمكننا استنتاج ذلك من مستوى ثقافته كما يظهر في مؤلفاته التي وصلت إلينا ومن ذلك إشارات ذكرها بنفسه حيث تحدث عن عائلته وجيله من الأدباء والفقهاء ».[3]

والظاهر أن صاحب الرحلة تحدث عن مرحلة تعلمه الأولى في الجزء الأول من رحلته وهو مفقود الآن – حسب علمي – «ويؤكد ابن حمادوش نفسه في الجزء الأول الذي بين أيدينا أنه قد انتهى من الجزء الأول وذكر في عدة مناسبات أنه تناول فيه كيت وكيت*»[4]، فلا شك

---

[1] المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، حرف الحاء، ط1، دار الجيل، بيروت، 2005م، مج7، ص206.

[2] عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري،ص115.

[3] المنظمة العربية للتربية للثقافة والعلوم، موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، ص206.

* كيت وكيت:يكنى بهما عن الحديث والخبر،ولا تستعملان إلاّ مكررتين، يراجع جبران مسعود، الرائد، معجم ألف بائي في اللغة والأعلام، ط3، دار العلم للملايين، تموز، يوليو، بيروت،2005م، ص749.

[4] عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري،ص13.

أنه تحدث عن طفولته وعن مرحلة تعلمه الأولى التي لم يذكرها – كما سبق وذكرنا – في الجزء الثاني الذي نحن بصدد دراسته .

ورغم أن ابن حمادوش قد تثقف ثقافة معاصريه من لغة وفقه وأدب ...الخ – نما سبق وذكرنا– غير أنه كان بطبعه ميالا إلى الكتب العلمية، فالمرحلة الثانية من طلبه للعلم تعكس اهتمامه الشديد بكتب التراث العلمي العربي واليوناني « فقد درس القلصادي وشرح السنوسي على الحباك والقانون والنجاح لابن سينا وشرح ابن رشد على منظومة ابن سينا ومقالات إقليدس وكتاب تاريخ الدول للملطي في أخبار العلماء والأطباء »[1]، إضافة إلى هذه المصادر اعتمد ابن حمادوش أيضا على التجربة والمشاهدة « فقد كان يخرج للجبال المجاورة لمدينة الجزائر لإجراء التجارب والتقاط الأعشاب والتدرب على رمي البونبة ووزنها وبارودها ومسافة انطلاقها »[2]

أما في المغرب فقد سجل ملاحظات علمية هامة أثناء مروره من تطوان الى فاس والعكس إذ لاحظ « عذوبة وملوحة المياه، وأنواع الأشجار والطيور والحيوانات وغرائبها، كما لاحظ حركات النجوم وعالج التغلب على الحمى ».[3]

كتب عن نفسه، وهو مايزال في شبابه (سنة 1145) أنه أصبح طبيبا وصيدليا وعشابا ، ولهذه الميول العلمية التي ميزته، جعلت مؤلفاته يغلب عليها ذلك الطابع المخالف لما شاع عند معاصريه – الطابع العلمي – ، ومن بين ماألفه في هذا الشأن : تأليف في الروزمانة، تأليف في الأعشاب، الجوهر المكنون من بحر القانون (في الطب)، الإسطرلاب والربع المقنطر...إلخ [4] .

[1] أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري، حياته وآثاره، ص 29 .

[2] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1830،1500)،ط1، دار الغرب الإسلامي، 1998م، ج2، ص 427.

[3] المرجع نفسه، ص427،428.

[4] ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي،ج2،ص430،428.

ولابن حمادوش، بالإضافة إلى هذه الكتب العلمية، مؤلفات أخرى في الأدب والرحلة والمنطق والنحو والشعر. وقد ذكرها في الجزء الثاني من الرحلة الذي نحن بصدد دراسته.

عاش ابن حمادوش في القرن الثاني عشر الهجري (18م) ، «وقد عرف هذا القرن تحولات كبيرة داخل الجزائر وخارجها وكان ابن حمادوش من مشاهديها ومن مسجلي آثارها ». [1]

فعلى الصعيد الثقافي نستطيع القول بأن عصره تميز « بشيءٍ من الانتعاش الثقافي. ففي القرن الثاني عشر الهجري عرفت الجزائر أسماء لامعة في الإنتاج الأدبي والفقهي والتاريخي والعلمي. ففي ميدان الأدب هناك شيخه محمد بن ميمون ... وفي الفقه ونحوه ظهر أحمد البوني ... وفي التاريخ نجد أبا راس وابن المفتي، وفي التصوف يكفي الإشارة إلى الحسين الورتلاني، ومحمد بن حواء، كما ألف ابن علي الشريف في الفلك، وهناك قائمة طويلة من المفتين المالكية والحنفية تداولوا على وظيفة الفتوى ... ، نذكر منهم حسن العنابي، ومحمد بن نيكرو ... إلخ».[2]

فالقرن الثاني عشر– إذن – شهد نشاطا معتبراً في مختلف الفنون والعلوم، « وهو نشاط عكسته نماذج معتبرة بمادتها ورجالها وقضاياها »[3]، كما أولت الجزائر في هذا القرن عناية خاصة للتعليم، ولا سيما في مدينة قسنطينة على يد صالح باي، بالإضافة أيضا إلى انتشار الزوايا وكثرة الأوقاف على المساجد، وكثرة العلماء والمتصوفة، « ولكن لا يمكننا القول بأن الجزائر على عهد ابن حمادوش كانت تشهد نهضة أو ازدهارا ثقافي – ذلك أن معظم علمائها

[1] أبو قاسم سعد الله، الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري، حياته وآثاره، ص11،

[2] المرجع نفسه، ص 13.

[3] عمر ابن قينة، في الأدب الجزائري الحديث (تأريخا وأنواعا وقضايا وأعلاما)، د ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ماي 1995م، ص99.

كانوا مايزالون عالة المعاهد الإسلامية في فاس وتونس والقاهرة.كما أنهم لم يستفيدوا شيئا من الناحية العلمية من تجارب الأوروبيين في حقل النهضة».[1]

أما على الصعيد السياسي فقد عاصر ابن حمادوش أحداثا هامة في بلاده وفي العالم، فقد تميز عهده « باستقلال كبير للجزائر عن الدولة العثمانية فلم يعد السلطان يرسل ممثلا عنه وإنما كان يكتفي بتثبيت من يقع عليه اختيار الأوجاق في الجزائر ».[2] وإلى جانب ذلك عرفت الجزائر أيضا في عهده حكماء أقوياء أمثال « أوزن علي، ومحمد عثمان باشا، وعلي باشا المعروف بوصبع. كما ظهر بايات أقوياء أمثال مصطفى بوشلاغم وخليفة بن المسراتي...إلخ ».[3]

لكن رغم هذا المظهر السياسي القوي إلا أن الحياة الاقتصادية قد أخذت في التدهور حيث عاصر ابن حمادوش «تسلط اليهود الاقتصادي، وخصوصا اليهود المهاجرين من أوروبا (وليفورنيا بالذات)، وانحصار موجة غنائم البحر، وبعض الغارات الأسبانية على الجزائر مثل غارة أوريلي (سنة 1975) ».[4]

أخيرا يمكن القول أنّ رحلة ابن حمادوش تعتبر من المخطوطات النادرة عن الجزائر والمغرب خلال القرن الثاني عشر الهجري، فهي ناذرة في نوعها إذ لم يُبْقِ لنا الزمن سوى عدد ضئيل جدًا من الرحلات الجزائرية التي تعود إلى العهد العثماني، فهي بذلك سجل حافل بمعلومات كثيرة عن عصره سياسيًا واقتصاديًا وفكريً واجتماعيًا، كما تضم أيضا أخبارًا عن معاصريه، فلقد تحدث في الرحلة عن أفكارهم وأخلاقهم ونظمهم وأذواقهم.

[1] أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري،حياته وآثاره،ص13.

[2] المرجع نفسه،ص 11.

[3] المرجع نفسه،ص12.

[4] عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري، ص10,9.

2. مضمون الرحلة:

من خلال اطلاعنا على مضمون الرحلة، نستطيع القول بأنه يمكن تقسيم محتواها العام إلى ثلاثة أقسام وهي :

أولا:

القسم الخاص بالمغرب، وهو« من الصفحة الثالثة إلى الصفحة 75. وهو مايمكن أن نطلق عليه الرحلة المغربية»[1]، والظاهرأنّ ابن حمادوس كان يتردد على المغرب للتجارة وطلب العلم – كما سبق وذكرنا– ولقد« باشر المؤلف كتابتها في (1156هـ–1743م) من دون تحديد المكان لافي البداية، ولافي تاريخ الفراغ من كتابتها (1160هـ–1747م) ... ويتضح شكل الرحلة في القسم الخاص بحديثه عن المغرب الأقصى فقط».[2]

يذكر ابن حمادوش في رحلته أنه سافر إلى المغرب على ظهر سفينة فرنسية استأجرها ثلاثة تجار جزائريين في 14 فبراير 1743، كما يذكر أيضا أن أول مدينة زارها في المغرب هي تطوان، يقول: «بعد شروق الشمس خرجنا من جبل طارق...فدخلت تطوان من أول الساعة السابعة، وصليت الظهر بها جماعة، فلقيت من علمائها الشيخ أحمد الورززي فسلمت عليه»[3].

والظاهر أن ابن حمادوش ذكر كل ما شاهده وعاشه في المغرب كوصفه لثورة حاكم تطوان (أحمد الريفي) ضد السلطان(مولاي عبد الله)، كما تضمنت رحلته أيضاً أخبارًا عن عادات وتقاليد سكان المغرب خاصة في الاحتفال بليلة المولد النبوي، بالإضافة أيضا نجده يذكر غرائب وعجائب ما رأى في المغرب كدخولهم عراةً تماماً للحمامات وهذه عادة استقبحها صاحب الرحلة، يقول من ذلك: « من أقبح ما في المغرب كله حماماتهم، ويبدون عوراتهم

[1] عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري،ص18.

[2] عمر ابن قينة، في الأدب الجزائري الحديث، ص99،100.

[3] عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري، ص31.

فيها »[1]، كما تحدث أيضا عن عادات غريبة أخرى رآها في المغرب « ومنها أن رجالها لايتعممون إلا القليل، وأن نساها لهم عمائم كبار»[2]، إضافة إلى ذلك فقد أورد ابن حمادوش تفصيلا مهما عن الدروس التي حضرها في المغرب، فذكرأسماء العلماء الذين التقى بهم، وناقشهم وقرأ عليهم.

ثانيا :

قسم عن المؤلف نفسه في الجزائر وهو خاص ب « نشاطه الشخصي في الجزائر وغيرها من قراءات وتدريس وعمل واتصالات وتأليف»[3]، وهذا الجزء يمكن أن نعتبره سيرة ذاتية عن المؤلف نفسه ، فقد ذكر أخبارًا متفرقة عن حياته الشخصية الصعبة والقاسية ، لأنه كان فقيرًا فتسبب له ذلك في كثرة المشاكل مع زوجته الثانية ومع عائلته الأخرى أيضا، يقول : «... باتت أمي عندي فأخذت تلوم سعدي ، حتى قالت: يا ليتني لم ألدكم ذكورا لسوء سعدكم وكنت تعبت في الماضية في المغرب من مرض وخسارة وضيق ولم أر قط ما رأيت فيه من ضيق العيش والخسارة والعياذ بالله، حتى أيقنت الهلاك، فقدمت وجدت من الزوجة مثل ذلك، ولم أرها فرحت بقدومي »[4]، فرغبة صاحب الرحلة في طلب العلم، جعلته كثير التنقل والترحال في سبيل تحصيله، غير أن ذلك انعكس سلبا على حياته العائلية والشخصية، فكثرت مشاكله لأنه أهمل التجارة التي تعتبر مصدر رزق العائلة.

عاش ابن حمادوش حياة مليئة بالفقر والضيق والمشاكل فلم يستطع أن يشق طريقه إلى الثروة والجاه «وقد كان الفقر سببا في شقاء زواجه أيضا حتى هربت منه زوجه الثانية وطلبت الطلاق، وفارقته أمه وأخوه، وحاول الجمع بين العلم والتجارة فلم يحالفه النجاح، لأنهكما قال:

---

[1] عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري،ص94.

[2] المصدر نفسه، ص94.

[3] أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري، حياته وآثاره، ص 58.

[4] عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري، ص 115.

كان لا يفارق الكتب »[1]،حتى في أصعب الظروف التي كانت تواجهه كمعاناته من الغربة في المغرب، وكساد تجارته، وانقطاع الأخبار بينه وبين أهله الجزائر .

ثالثا :

ويتضمن هذا القسم «النصوص والوثائق التي أوردها مثل قائمة ولاة الجزائر من أول دخول العثمانيين إلى زمنه وسلاطين آل عثمان إلى زمنه أيضا،ومثل نقوله عن كتاب الاكتفاء لابن الكردبوس التي ملأها أربعين صفحة من الرحلة، وكذلك الأنس الجليل للعليمي، ومجموعة من عقود الزواج (بما فيهاعقد زواجه هو وأخته) ومثل أسانيد الصباغ للاسكندري وأسانيد البناني، واستطرد أيضا فذكر قصصا وحكايات مألوفة مثل قصة العنقاء وقصة الفيل ونحوها».[2]

معنى ذلك أن مؤلف الرحلة اعتمد على كتب ووثائق مكتوبة للمتقدمين، أما المعاصرين له، فكان يأخذ عنهم بالمشافهة والسماع، فيحصل في الأخير على الإجازة* منهم، فهذه العوامل ساهمت بشكل أو بآخر في تكوين شخصية ابن حمادوش العلمية والثقافية، ضف إلى ذلك كله تجربته الشخصية فكثيرا ما كان يروي أحداثا في رحلته شاهدها عيانا أو عاشها.

إذن فالمحور الرئيسي التي تدور حوله الرحلة بكل أقسامها هو شخصية المؤلف.

[1] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي(1830،1500)، ج2،ص425.

[2]أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري، حياته وأثاره، ص58.

*له قصيدة يمدح فيها الشيخ محمد عبد السلام البناني الفاسي، يلح فيها على طلب الإجازة، يراجع الرحلة، ص 39، يقولفي مطلعها:

سَمَوْتَ فَلَمْ يَكُنْ بِقُرْبِكَ نَازِلٌ فَكُنْتُ فِي أَوَّجِ العِزِّ تُمْطِرُ بِالسُؤَالِ

المبحث الأول : أنواع المكان في رحلة ابن حمادوش الجزائري.

تمهيد :

لقد ارتحل ابن حمادوش الجزائري من موطنه الأصلي (الجزائر) متجها إلى المغرب بهدف العلم والتجارة، ما يعني أنه سيمر ويحل ويتفاعل مع مجموعة من الأمكنة التي تختلف صورها في ذهن الرحالة باختلاف الموقع الجغرافي ، واختلاف المجتمعات بما تحتويه من نماذج بشرية، وعادات وتقاليد .الأمرالذي يجعل علاقته بهذه الأمكنة متراوحة بين علاقة طبيعية تارة ، وعلاقة متوترة تارة أخرى، والذي يتحكم في ذلك طبيعة المكان من خلال تأثره ب :«المنظومات الاجتماعية والدينية والسياسية والأخلاقية والزمنية ، بل إن هذا التبادل بين الصور الذهنية والمكانية يمتد إلى التصاق معان أخلاقية بالإحداثيات الإمكانية نابعة من حضارة المجتمع وثقافته »[1]. وهذا يعني أن المكان في الرحلة لن يكون واحدا ، وبالتالي تكون العلاقة به قائمة على أسس متعددة ومتنوعة وعلى هذا الأساس يمكننا أن نقسم المكان في الرحلة إلى : المكان الأصلي ، المكان الأخر ، المكان الهدف .

لكن الحديث عن هذه الأماكن لا يعني أنه لايوجد سواها إنما كان تفصيل الحديث غنها باعتبارها أماكن ذات دلالات، وهذا يعني أن هناك تصنيف آخر للأماكن على أساس الانغلاق والانفتاح بنوعيها العامة والخاصة.

التقسم الأول:

1. المكان الأصلي : (الجزائر مدينة المنطلق) :

من الطبيعي أن تكون العلاقة حميمة بين الرحالة ومكان الانطلاق، مسقط الرأس، وموطن الأهل والعشيرة ، إنه المكان الذي يمكننا أن نعتبره الأساس الأول في الرحلة ، باعتباره المكان الذي يلازم الرحالة فهو حاضر في ذهنه لا يفارقه وإليه يشتاق في كل موقف، وفي كل لحظة من لحظات الرحلة، سواء لحظات الانشراح والاستئناس أو لحظات الانقباض والإحساس

[1] سيزا قاسم، بناء الرواية، مهرجان القراءة للجميع، د ط، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2004م، ص 105.

بالغربة ولقد كان «الإحساس بالغربة يتضاعف في نفوس الشعراء المهاجرين حين تمر عليهم بعض المناسبات التي تعودوا أن يقضوها بين أهلهم وذويهم، كمناسبات الأعياد ونحوها، وحين يجد الشاعر نفسه وحيدا غريبا في مثل هذه المناسبات لايملك إلا ذكرياته ودموعه»[1]، وهذا ما نلمسه في قصيدة لابن حمادوش قالها حين شهد عيد الضحى في المغرب، والتي عبر فيها عن حزنه وغربته وبقائه وحيدًا، ومما جاء فيها قوله :

لَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ اليَوْمِ أَصْبَرَ صَابِرٍ وَهَا أَنَا فِي هـذَا الأَوَانِ ذَلِيـــلُ

أَنُوحُ عَلَى بُعْدِ الدِّيَارِ صَبَابَـــةً نَوَاحِيَّ الثَّكَالَى تَحْسَبُونِي جَمِيلُ*

بُثَّيْنَـةُ عِنْدِي وَإِنِّي جَارُهـــــا وَفَارَقْتُهَا ،كَرْهًا ،فَإِنـِّي عَلِيـــلُ

وَقَـدْ أَدْرَكَ العِيدُ الخَيْلَ دِيـــارَهُ عَلَى شَطَّطٍ فَـمَـا إِلَيـْهِ سَبِيـــلُ

فَلَوْ كَـانَ طَيْـرٌ يَطِيرُ بِبَغْيَتَـــي إِلَى دَّارِ زَهْرَا بِالكِتَـابِ يَدِيـــلُ

لَطَوَقْتُهُ طُوقَ الأَمَـانِ فَيُخْبِـــرُ بِأَنِّي عَلَى بُعْدِ الدِيـارِ نَحِيـــلُ

وَلَـكِنْ لَمْ تَدْرِ الطُيُورُ بِأَنَّنِـــي بَكَيْتُ الدِّمَـاءَ قَهْرًاوَلِي عَوِيـــلُ[2]

وله قصيدة أخرى قالها في نفس الموضوع، حيث تحطمت السفينة التي كانت ستنقله ومن معه إلى الجزائر، يقول فيها :

أَيا أُمَّ عَبْدٍ صَبْرِي تَصَبـــَرِي وَأَيْقِنِي أَنـِّي عَلَى الأَمْرِ جَـــرى**

لَكِـــــنْ ماَ قَـدَّرلاَ يَكُـــونُ سِوَاهُ، فَـأَرْضِي بِـهِ يَهـــُونُ

وَبِي كَأَلْفِ مَا بِكِ مِنَ الأَسَـــى وَلَيْسَ لِـيْ بِدَفْعِهِ مِنْ مُؤْتَسِـــي

جَـرَتْ لَنَـا الأَقْدَارُ بِالتِي نـــَرَى فَاصْبِرِي صَبْرًا كَصَبْرِي فِي الوَرَى

---

[1] فوزي سعيد عيسى، دراسات في أدب المغرب والأندلس، د.ط، دار المعرفة الجامعية،2000 م، ص29.

*شبه نفسه بجميل وزوجه ببثينة، وهي زهرا (زهرة) المذكورة في البيت الخامس.

[2] عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري، ص108.

**يبدو أن المؤلف هنا يخاطب أمه،و(عبد) هو عبد الرزاق اسمه هو.

كَرْهًا، وَمَـا أَنَا لَدَيْكُمْ بِالفَخُـورَ لَكِـنْ لِلدُّنْيَـا يَقُودُنِـي الغُـــرُور

وَحُبُهَا فِيمَا ،عَلِمْتُمْ، كالفَجُـور لِأَجْلِـهَا رَكِـبَ الأَحْمَقُ البُـحُورَ[1]

الظاهر من خلال هذه القصيدة أن نزعة الحنين كانت « تتأجج في نفس الشاعر أيضا حين يتذكر أبناءه الذين تركهم ورحل عنهم إلى مكان ناء بحثا عن الرزق ونحوه »[2] ، كما سيطر عليه الحزن حين انقطعت أخبارهم عنه، يقول :

تَرَكْـتُ أَفْرَاخًا كَأَفْرَاخِ القَطَـــا فِي أَفْحُوصِ فَقْرٍ وَمَالَهُ تَمَطَـــا

زُغْبًا صِغَارًامَـــاعَلَيْهِمْ رِيـــشٌ وَأُمُّهُمْ فِـي مُهِمَـةٍ وَحِيـــــشٍ

فَمَـنْ لَـهُمْ وَمَنْ لَـهُمْ وَمنْ لَـهُـمْ سِوَى إِلَـهٌ خَلَـقَ الخَلْقَ لَـهُـــمْ

بَكَيتُ قَـــهْرًا عَنْـكُمْ يَـا مَعْشَراً فَرَقْتُـكُمْ وَمَـا وَجَدْتُـمْ نَفْـــرَا

لَيْسَ لَنَـــا اتِصَالٌ فِـي الأَنَـامِ وَلاَ لَنَـــا اتِصَـــالٌ فِـي المَنَـــامِ

وَلَـمْ أَدْرِ أَقَصْـرُكُمْ رَحِيـــبٌ أَمْ حالُكُـمْ كَـحَالِنَا نَحِيـــــبُ[3]

ما يمكن أن نستخلصه مما تقدم إن «الإنسان في الرحلة تتغير مألوفاته وعاداته فيكتسب بمواجهة ذلك أخلا طيبة تغرسها الرحلة في النفس، مثل خلق الصبر لكثرة مايلاقيه الراحل من متاعب بدنية وآلام نفسية لفراق الأحبة...، فإن البعيد عن وطنه أشد شعورا بالحاجة إلى هذا الأدب»[4] للتعبير عن مشاعره وعواطفه. وفي هذا الصدد

نجد قوله :

لَكِنَهُ يَكُونُ بَعْدَ العُسْرِ يُسْـــرٌ وَيُتْبَعُ العُسْرَ بِأَلْفِ أَلْفِ يُسْـــرِ

وَأَيْقِنِي أَنَ مَـعَ الصَبِرِ الظَّفَـــرُ وَإِنْ ذَا مُرَّ القَضَاءُ والقَـــــدَرُ

وَأَنَنِي رَهْنُ الأَسَى فِـي بَيْتِـــي لاَ أَنَسٌ لاَ مُعِينٌ لِي فِي قُوَتِـي

---

[1]عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري، ص 109،110.

[2]فوزي سعيد عيسى، دراسات في أدب المغرب والأندلس، ص 29.

[3]عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري، ص110.

[4]الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، الرحلة في طلب الحديث، حققه وعلق عليه: نور الدين عنتر، ط1، دار الكتب العلمية، مصر، 1975م، ص27.

لَكِنَّنِي وَقْتَ قَـــدْ اسْتَرَحْـــــتُ مِنَ العِلاَجِ فِيمَا قَدْ رَأَيـــْـــتُ
لَحْمِي قُوَتِـي وَدِمَـائِي شُرْبِـــــي وَفِكْرَتِي فِيكُمْ وَرَغْبَتِي رَبِّـــي
فَهَذَا حَالِي فِي المَسَاءِ وَ الصَبَـاحِ وَهَـذاَ دَأْبِي فِي الغَدُّوِ وَالـرَوَاحِ
فَـإِنْ أَنَـا جَزَعْتُ أَوْ فَرَقْـــــتُ أَيَقْنُونِي مُـرًّا قَدْ كَرِعْـــــتُ[1]

ولهذا يهمنا أن نشير إلى أن البيئة، أو الوسط الذي يعيش فيه صاحب الرحلة بما فيه من أمور طبيعية كانت أم مصطنعة ،«بتأثير النظام الاجتماعي أو السياسي، تترك بصمتها على ما يشعر به، أو يحس، فتسمو تلك الإحساسات، وتبرز في صور، تعكس، الوسط البيئي الطبيعي والاجتماعي»[2]، الذي يعيش فيه الشاعر، ولذلك تلعب البيئة دورها في تطور الأحداث، وتنوعها، فبعد صاحب الرحلة عن وطنه وأهله، وكساد تجارته، وغزارة الأمطار، وانشغال الناس بشؤونهم، كل هذه الأمور جعلته حزينا كئيبا وحيدا، حيث لاحظنا أنه كان متأثرا جدًا من جراء الغربة والبعد.

ولهذا فالجانب النفسي والصحي بالنسبة لصاحب الرحلة كان متدهورا أيضا، حيث صعب عليه التكيف والملائمة في البيئة الجديدة (المغرب)، حتى وجدناه يود لو يسمع أخبار أهله وأحبابه حتى ولو في المنام، وبذلك وجد الشاعر وسيلة للتعبير عن العواطف والمشاعر والأحاسيس التي تختلج صدره من خلال هذه القصائد.

فعلاقة الرحالة بهذا المكان إذا «هي علاقة مركزية تسقط التباسها بعد مغادرته، فيصبح مرجعا للمقارنة، وأفقا للتذكر والحنين، وما العودة إليه مسلحا بالعلم أو مطهرا نفسيا إلا رغبة في بداية علاقة جديدة».[3] تتناسب والحالة التي يعود بها الرحالة بعد أن يكتسب الجديد.

[1]عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري، ص 110.
[2]حميد آدم ثويني، فن الأسلوب، دراسة وتطبيق عبر العصور الأدبية، ط1، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، 2006م، ص59.
[3]شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، سلسلة كتابات نقدية، د.ط، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ، 200م، ص320.

2. المكان الآخر :

مادام هناك مدينة أطلقنا عليها صفة نقطة المنطلق، فإن ذلك يفرض أن تكون هناك مدن للعبور والتعامل مع الآخر قبل الوصول إلى نقطة الهدف.

ويمتد هذا المكان إلى مسافة هي الأطول، يعبر من خلالها الرحلة أماكن جغرافية متعددة، تتباين فيما بينها من خلال اختلاف العادات والتقاليد وطبائع البشر فيها، وعلى هذا الأساس«يصبح المكان أمكنة ليس فقط للعبور، و إنما للتزود بالزاد والمعلومات والحكايات والتجارب ، مما يجعل العبور أخصب مرحلة في الرحلة، نظرا لتعدد الأمكنة وتنوع التجارب من جراء اللقاءات والصدمات والمفاجآت».[1]

وفي هذا المكان يبدأ الإحساس بالغربة، وتبدأ معه التناقضات والمقارنات، ويصبح الرحالة أكثر انفعالا جراء ما يتوقع من أخطار الطريق، سواء الطبيعية منها أو البشرية، فالتهديدات تحيط بالرحالة – وبكل مسافر– من كل الجهات، وتترصده من مختلف المصادر ، وهكذا يصبح المكان آمنا تارة وخطيرا تارات أخرى، يمتاز بالإيجابية تارة، وبالسلبية تارات أخرى، وتبعا لذلك يعيش الرحالة حياة اللاتوازن، حياة الاضطراب وعدم الاستقرار.

فمن خلال تتبعنا لتجليات هذا المكان في خطاب الرحلة – رحلة ابن حمادوش الجزائري– من خلال علاقة الرحالة به وبمن هم فيه، يمكننا أن نقسمه إلى قسمين :

أ. المكان الإيجابي :

إيجابية المكان أو سلبيته، لا يمكن أن تحدد إلا من خلال نظرة الرحالة إليه وإلى القاطنين فيه انطلاقا من طبيعة العلاقة التي جمعته بهم، وما وقع له في المكان معهم، هذا يعني أن هذه القيمة لا يحددها المكان ذاته، فهذا المكان قد يكون من أروع الأماكن، إلا أن الرحالة يصنفه في خانة السلبي، تبعا لما يحدث فيه من أفعال وما يقال فيهمن أقوال،فالمكان يتأثر بأهله وقاطنيه، فهو يؤثر فيهم باعتباره كما يراه الكثيرون يمثل «جزءا في بناء الشخصية

[1]شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص221.

البشرية، فالذات البشرية لا تكتمل داخل حدود ذاتها، ولكنها تستنبط خارج هذه الحدود لتصبغ ما حولها بصبغتها، وتسقط على المكان قيمتها الحضارية»[1]

ومن نماذج الأمكنة الإيجابية التي صورتها الرحلة وصف ابن حمادوش لمجلس عبد الحكيم أدراق يقول «ثم إني جالس معه في مجلس حسن كأن له مجلس من مجالس الملوك، بيت في رياض من نواور شتى ونارنج وعنبر، ومياه والناس يقصدونه للتداوي»[2]، فهذا المكان ومن خلال ما تقدم، يتضح لنا جليا أن الرحالة اطمئن إليه وطاب له المقام فيه، فبدا في الخطاب الرحلي فضاء ممدوحا خصه الرحالة بالصفات الحميدة

إن الرحالة بطبعه يعمد دوما إلى المقارنة بين الماضي والحاضر، بين المكان الذي انطلق منه والمكان الذي يمر فيه، بل إن المقارنة تمتد حتى إلى عمق الرحالة ذاته، في مشاعره وأحاسيسه من منطلق أن الرحالة لا يرتحل إلا بحثا عن جديد، أو رغبة في التغير والتغيير، وهو ما تحقق في رحلة ابن حمادوش الجزائري حين تحدث الرحالة مقارنا بين عادة الجزائريين وأهل فاس في الاحتفال بالمولد النبوي الشريف يقول: «لقيت الطبالين والغياطين وآلات الطرب كلها في السوق، ذاهبين بأربع قباب من شمع، كل واحدة من لون، واحدة أحدها خضراء وأخرى بيضاء وأخرى حمراء والرابعة نسيت لونها، أخف مما يجعل في الجزائر عندناوكذلك عن حديثه عن بعض أهل فاس والجزائر:«ثم أن البلاد* فرحت كلها وازينت يوم الخميس، إلا أن زينتهم بثياب ملبوس النساء، يعلقون القفاطين والمحارم وغيرها من خروم حرير وما تيسر، بخلاف زينة بلادنا».[3]

ب. المكان السلبي :

سلبية المكان كإيجابيته لا ترتبط بالمكان بقدر ماترتبط بالنازلين فيه، سواء المقيمين أو العابرين، والمكان السلبي هو المكان الذي يخيب ظن الرحالة فيه عندما يجد فيه المصاعب

[1]جماعة من الباحثين، جماليات المكان، ص63.
[2]عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري،ص82.
[3]المصدر نفسه، ص94.

أو يتعرض فيه للظلم أو الإذلال، فتهان كرامته أو يسرق ماله، فيكون ذلك سببا في أن يتخذ منه موقف العداء، فيهجوه ويهجو من فيه، كل هذا يلخصه ما نقله لنا الرحالة– ابن حمادوش الجزائري– في قطعة شعرية ، هجا فيها أولاد مختار بالمغرب على بخلهم«وقد عبر فيها على الخوف الذي ساوره هو و رفاقه لأن ليلتهم كانت محفوفة بالخطر من أولئك القوم»[1]، وتبلغ هذه القطعة تسعة عشر بيتا، ولقد وردت في آخر مقاماته الأولى، التي قالها وهو في الطريق من تطوان إلى مكناس، ومطلعها:

وَلَيْلَةَ مُخْتَارٍ يَبِيتُ بِهَا هـَمٌّ مَدَّى الَّدهْرِ لاَيُرْجَى يَحُورُ عَنِ الهـَمِّ

وَآلَ قَرِيمٍ كُلُّهُمْ مَجْمَعُ الرَّدَى يُسِيئُونَ بِالأَضْيَافِ فِي القَوْلِ وَالحُكْمِ[2]

ما نلاحظه في هذين البيتين أن الإشارة لم تكن إلى المكان بل إلى قاطنيه، الذين تميزوا بسوء أخلاقهم وبشاعة ما يصدر منهم من ظلم وإساءة، وهو ما طبع هذا المكان بالطابع السلبي الذي يثير القلق، فاتخذ منه الواصف موقفا معاديا، عبر عنه بعبارات الذم والهجاء.

أما جبل طارق فبالرغم من أنه لم يذكر إلا بالاسم إلا أنه يعتبر من الأماكن الهامة في الرحلة نظرا للأحداث التي شهدها الرحالة فيه وما انتابه من خوف هو ومن كان معه في السفينة ، لكنه لم يذكر لنا سبب خوفهم ، لعلهم كانوا يتوقعون عدم الإذن لهم ب بالدخول إلى الميناء أو أنهم كانوا يخشون من قراصنة البحر ومن ذلك قوله: «ويوم الأربعاء سادس عشر فبراير ألقينا المراسي بجبل طارق، ونحن على وجل، إذا به خرج لنا رايس المرسى فسألنا، فلما أخبره رايسنا افرانصيص* وأنه في كروة أهل الجزائر: الحاج عبد القادر بن كرشال وأبي صابر التلمساني وحاج عبد السلام السفاقسي**، قال له أبعد عن المراكب ينزل أحد إلى البر. لما كان في أهل الجزائر من وبي، ولم يدر أن أحد تجاره مضروب بها راقد»[3].

---

[1]عمر ابن قينة ، في الأدب الجزائري الحديث، ص100،99.

[2]عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري، ص72.

*أي أن قائد السفينة كان من الفرنسيين.

**هؤلاء هم التجار الثلاثة الذين سافر ابن حمادوش معهم.

[3]عبدالرزاق بن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري، ص 30.

فمن خلال هذا القول يتضح لنا جليا أن سبب خوفهم هو توقعهم عدم الإذن لهم بدخول الميناء وقد ذكر لنا المؤلف أن هذا المرض كان سببا في منعهم من دخول تطوان أثناء وصولهم إلى الميناء.

ومن بين الأحداث التي شاهدها ابن حمادوش في ميناء جبل طارق موت الحاج عبد القادر بن كرشال بالوباء وهو من أحد تجار التجار الثلاث الذين كان معهم في السفينة حيث نقل لنا طريقة موته يقول: «ولمضي أربعة أدراج من غروب الشمس ليلة الجمعة مات الحاج عبد القادر المذكور بالوباء شهيدا، رحمه الله، يصلي من غروب الشمس إلى أن سجد فمات في سجوده رحمة الله عليه»[1]. كما نقل إلينا طريقة دفنه يقول :«وكفلناه في ساعته وغسله الحاج عبد الرحمان التطاوني*، وصليت عليه إماما مع الجماعة كلهم بعد صلاة العشاء. ونزل معه مغسله وآخرون من النصارى في الفلوكة إلى أن بعدوا عنا وربطوا معه شكارة من رمل فثقلوه بها وألقوه في البحر وأتوا».[2]

إذن نستنتج مما تقدم أن الرحالة نقل إلينا بعض الأماكن الإيجابية التي اطمأن إليها وبعض الأماكن السلبية التي خيبت ظنه ووجد فيها بعض المصاعب.

3. المكان الهدف:

يعتبر المكان الهدف من أهم الأماكن في الرحلة (رحلة ابن حمادوش)، خاصة أنه مكان محدد سلفا، ومخطط الوصول إليه معروفا مسبقا، وهو أكثر من ذلك مرتبط بمقصد الرحلة الأساسي وهو طلب العلم من جهة والتجارة من جهة أخرى، وعليه يصبح حضور جميع الأمكنة الأخرى تمهيدا له.

---

[1] عبدالرزاق بن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري، ص 31.

*هو أحمد بن علي الريفي قائد تطوان. كان والده على طنجة إلى أن توفي سنة 1125.وتولى أحمد الريفي على تطوان سنة 1125 ثم عزل ثم تولى من جديد سنة 1145. وظل إلى أن قتل، كما سيأتي في الرحلة، سنة 1156. والصواب أن يقول المؤلف أحمد ابن علي وليس ابن عبد الله.

[2] المصدر نفسه ص31.

فالمكان الهدف في رحلة ابن حمادوش هو المغرب، ارتحل إليه الرحالة طلبا للعلم والتجارة معا – كما سبق وأشرنا– وعلى أمل تحسين وضعه الإقتصادي، وذكر أنه انتقل إليه على ظهر سفينة فرنسية استأجرها ثلاث تجار جزائريين «وكانت أول نقطة في المغرب تطوان... ومن هنا بدأ يسجل ملاحظاته على القطر ابتداء من عادة المكس بتطوان نفسها».[1]

ذكر صاحب الرحلة السلع التي أخذها من الجزائر ليبيعها في المغرب فوصفها قائلا «كان عندي صندوق فيه ثلاث وأربعون تزينة ششية تونسي وسبع عشر حزام حرير وقصاب زبد، فأخذ المكس مني حزاما حريرا وخمسة وعشرين شاشية زوج تزينات وواحدة ».[2]

نفهم من كلامه أن التزينة تعني اثني عشر شاشية، فسلعته لم تسلم من المكس أيضا، ولهذا ذكر أنه دفع مافرض عليه من المكس، كما يتضح أيضا لأن عادة المكس في تطوان حسب رأيه كانت من بين الأسباب التي أدت إلى اندلاع الثورة في المغرب «ذلك أن الباشا أجمد بن عبد الله الريفي كثر ماله وتجبر في نفسه وطغى على عباد الله حتى قرر المكوس»[3]، التي أرهقت كاهل أهل تطوان.

وما يهمنا هنا الإشارة إليه هو أن لمؤلف الرحلة عاش أوقاتا صعبة بالمغرب بسبب الحاجة والخسارة، وذلك لأن تواجده هناك تزامن مع اندلاع هذه الثورة لسوء حظه، فذكر أنه خرج ذات مرة إلى السوق إلا أنه عاد حزينا« لقلة ذات يدي لأن كل ما عندي سلعة كاسدة لا يمكن أن يأخذ منها...، وقلة ما يباع واشتغال الناس بشؤونهم».[4]

[1]عمر ابن قينة ، في الأدب الجزائري الحديث، ص 99، 100.

[2]عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري، ص32.

[3]المصدر نفسه،ص، ص75.

[4]المصدر نفسه،ص108.

فمن خلال الرحلة يكشف لنا صاحب الرحلة من نوعية التبادل التجاري في ذلك الوقت، فيخبر هو عن نفسه أنه قايض جميع سلعته «بمائة وخمس أذرع ملف وردي بل عكري وسبع وثلاثين رطلا ونصف قشينية، فهذا جميع ماقطعته سلعتي»[1].

فالمبادلات إذن كانت تنظم بين التجار«داخل أسواق أسبوعية يتم فيها تبادل السلعة بالنقود أو المقايضة»[2] أي تبادل سلعة بسلعة

هذا فيما يخص التجارة أما العلم فقد كان ابن حمادوش شديد الاهتمام به، وبمجالس العلماء والأخذ عنهم، حيث نجده يقدم ملاحظات على ماحوله من الطبيعة والناس، إذ نجده في رحلته إلى المغرب «يسجل ملاحظاته العلمية، ويؤلف الرسائل، ويناقش المسائل التي لم تكن تشغل عقول جيله من المتعلمين»[3].

ويذكر ابن حمادوش أنه اضطر إلى المبيت في إحدى البساتين– خلال خروجه من فاس– رفقة جماعة من الحمارين فسجل اندهاشه الشديد بما فعلوه حيث «تمكنوا من هرة ذبحوها وأكلوها»[4]، غير أننا نلاحظ أن هذا لم يمنعه من تسجيل ملاحظاته العلمية حولها أيضا، فقال عنها أنها «كانت كلها شحماً من شدة السمن وأمعائها كأمعاء بني آدم واحد وليست هي وحشية وإنما هي إنسية في الغالب، فطبخوها وأكلوها ونحن ننظر»[5]

فمن خلال الرحلة نلاحظ أن ابن حمادوش لم يختص بعلم معين فقد كان فقيها ورياضيا وطبيبا وصيدلانيا وفلكيا أي أنه كان ملما بعلوم كثيرة.

إذن نستنتج أن مؤلف الرحلة جمع بين التجارة والعلم، والدليل على ذلك أنه حين اهتم بالصيدلة ركب المعاجين وصنع الأشربة ليبيعها، وغيرها من الاهتمامات الأخرى ، وبهذا فإن شخصية ابن حمادوش مزيج بين الرجل التاجر والعالم.

---

[1] عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري،رحلة ابن حمادوش الجزائري، ص98.

[2] عمورة عمار، الموجز في تاريخ الجزائر، ط1، دار ريحانة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002م، ص106.

[3] المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، ص107.

[4] أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري، حياته وآثاره، ص36.

[5] عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري،ص99.

أخيرا يمكن القول أن اختيار الأماكن المشار إليها آنفا لا يعني أنه لايوجد سواها، إنما كان تفصيل الحديث عنها باعتبارها أماكن ذات دلالات وتعتبر علامات في بناء الرحلة وسير أحداثها، وهناك تصنيف آخر للأماكن يمكن الإشارة إليه باختصار، كالأماكن المغلقة والمفتوحة بنوعيها العامة والخاصة.

التقسيم الثاني:

أولا. الأماكن المغلقة :

وهي الأماكن التي تحدها حدود من جوانبها الثلاث على أقل تقدير بشرط أنتكون لها حدود سقفية، وتنقسم هذه الأماكن إلى عامة وخاصة، فالأماكن المغلقة العامة يرتادها عامة الناس، أما الخاصة فيكون التواجد فيها لأصحابها بشكل رئيسي.

1. الأماكن المغلقة العامة :

تدخل ضمن نطاق هذه الأماكن: الفنادق والخانات والمساجد والجوامع والمزارات والمتاحف... إلخ.

إن الظروف المحيطة كثيرا ما تدعونا للتواجد في هذه الأماكن، فهي أماكن طارئة يرتبط مقدار التواجد فيها بالظروف والحاجة، فتصبح بعض الأماكن أليفة إلينا وبعضها الآخر عكس ذلك.

أ. الفنادق والخانات :

يضطر الإنسان في كثير من الظروف للانتقال من مكان إلى آخر، يكون أقل ألفة من بيته فهي أماكن طارئة استوجب الظرف والقدر وجودنا فيها.

ففي رحلة ابن حمادوش يصف لنا الرحالة الخان الذي نزل به في مكناس يقول:«فنزلت بها في خان، كأنه من أبيات النيران أو كنائس الرهبان،بل لاشك أنه من أبيات العصيان، فلذلك لايسر به الناظر، ولا ينشرح له الخاطر، فاختصصت منه بحجرة، أو نقرة من حجرة، وكأنني وقعت فدخلت حجرة، فغلقت بابي، لأحفظ حبائي، وأومن جنابي، من شدة أتعابي»[1]

[1]عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري، ص79.

الظاهر أن الرحالة لمَ يُسْر بمظهر هذا الخان ولم يرتاح له، حيث وصفه لنا بأنه من أبيات العصيان، وهو يقصد بذلك الفساد الاجتماعي المنتشر في مدينة مكناس حيث صور لنا هذا الفساد من خلال قوله:«فلم يوقظني إلا جلبة الأصوات، وتداعي القينات، والتدافع بمنع وهات، وبعض هاد وبعض عات، وإذا بجاري بيت ببيت، يحاسب قينة على كيت وكيت، وهي تقول له: فعلت كذا كذا فعله، وتدفع أجر فعله، فو الذي سهل علي السفاح، ونصبني لكل من أراد النكاح، لا برحت إلى الصباح، على وجه وقاح، وتدفع المهر بلا سماح».[1]

فمن خلال هذا المقطع يتضح لنا جليا أن الفساد الاجتماعي كان منتشرا بكثرة في مدينة مكناس.

كما وصفه كأنه حان يقول:« ولبئس الخان، كأنه حان، وفيه يقال صاحبه قرنان، ولا ينطلق اللسان، فهذا العنوان، فإنه من السب العام، ويبلغ به الكرام»[2].

من خلال هذا القول يتضح لنا أن الرحالة لم يرتاح لهذا الخان وشبهه كأنه حان، فقد تهيأ للترحال في الصباح الباكر يقول:«فلما ظهر لواء الترك العجم، على جيش النجاشي أمحم*، شددت الرحال، وتهيأت للترحال، وامتطيت مطيتي، وأخذت طيتي، متوكلا على الرحمان، أن أبلغ المأمن بالأمان».[3]

وقد نظم في ذلك قصيدة يقول في مطلعها:

ولَيـــــْـلَةَ هَرْكـَـــــــلَة ** تُحَاكِي المَبِيتَ بِبَيْتَ الشـَـرْطِ*****[4]

---

[1]عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري، ص 79.

[2]المصدر نفسه،ص 79.

*وهو كناية عن ظهور الصباح وانقشاع الليل، فالصباح كالترك، والليل كالأحباش . ولعلها تقرأ (أفحم).

[3] عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري، ص 79.

**يقصد بالهركلة (بالقاف المعقوفة) الهرج ونحوه .

***أي كأنه بات في تلك الليلة في دار الشرطة.

[4]عبدالرزاق ابن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري ، ص79.

أما فيما يخص الفنادق فقد ذكر لنا الرحالة مجموعة من الفنادق التي كان يرتادها أثناء تنقلاته في المغرب بين مدن فاس وتطوان ومكناس.

فعندما كان في تطوان ذكر لنا أنه نزل في فندق أحمد السرايري يقول:«ونزلت في فندق السرايري في بيت مقابلة عين الشمال، كراؤها ستة موزونة في مل شهر»[1].

فالرحالة هنا يكشف لنا عن نوعية النقود المغربية في ذلك الوقت.

كما ذكر أيضا أنه نزل بفندق النجارين عندما دخل إلى فاس يقول:«فسرنا السير الحثيث حتى دخلنا فاس، بعد صلاة المغرب بكثير، ونزلنا في فندق النجارين»[2].

وتجبر الإنسان ظروف معينة على أن يتحول البيت إلى غرف يستأجرها الآخرون، ففي رحلة ابن حمادوش يستأجر الرحالة دار وذلك عند عودته من مكناس إلى تطوان يقول:«فطلبت أنا ورفقتي ثلاث رجال كراء دار فحملنا إنسان لنكتري منه بجماعتنا واشترط سكناه بزوجته وأولاده معنا»[3].

الظاهر أن الرحالة ومن كان معه لم تعجبهم ما اشترط عليهم صاحب الدار وهو السكن مع زوجته وأولاده والدليل على ذلك قوله:«ويوم الثلاثاء أول يوم من ذي القعدة بالعلامة، اكترينا دار أخرى وحدنا غير المذكور فسكناها في هذا اليوم».[4]

من خلال ما تقدم نستنتج أن الرحالة كان كثير التنقل من مكان إلى آخر.

ب. المزارات :

ترتبط دلالة المزارات بعمق الماضي، كأماكن لها قدسيتها للوهلة الأولى، ثم تتغير دلالاتها إلى تعابير أخرى مرتبطة بعمق الزائر، فيستطيع الكاتب الناجح أن يعكس ذلك التعبير إلى المتلقي من خلال النص.

---

[1] عبدالرزاق ابن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري ، ص 32.

[2] المصدر نفسه، ص80.

[3] المصدر نفسه،ص 99، 100.

[4] المصدر نفسه،ص 100.

فمن خلال الرحلة يتضح لنا جليا أن ابن حمادوش تردد على زيارة ضريح الولي الصالح سيدي علي الريفي* يقول:«ذهبت لزيارة سيدي علي الريف راجلا، فقطعت واد الكيتان إلى أنصاف فخدي، وهو واد عظيم من أفضل المياه، فبلغت له ضحاء، فلقيني خادمه وسلم علي وأدخلني قبة قبر الشيخ فأجلسني عنده وذهب. فبقيت إلى قرب الزوال»[1].

يظهر من خلال كلامه(ابن حمادوش) أنه قطع مسافة طويلة راجلا، وعبر وادي الكيتان الذي وصلت مياهه كما أخبرنا إلى فخذيه غير أننا نلاحظ أنه «لم يذكر زيارات أخرى لأولياء آخرين في الجزائر أو في المغرب رغم كثرتهم وشهرتهم التي ربما تجاوزت شهرة علي الريفي»[2].

والغريب أنه كان في تطوان عندما كانت سمعة الشيخ الطيب الوزاني تملأ الآفاق الصوفية وحتى السياسية ورغم ذلك«فهو لم يذكر أنه زار الطيب الوزاني أو اهتم بطريقته الصوفية».[3] وهذا يدفعنا إلى التساؤل عن السر وراء زياراته لضريح الشيخ سيدي علي الريفي بالذات دون غيره؟

ويهمنا هنا أن نشير إلى أن ابن حمادوش لم يكن«من المتصوفة أو حتى المتظاهرين بالتصوف مثل معظم فقهاء وقته... ولذلك حكم بعضهم بأنه كان عقلانيا بمقياس ذلك العصر»[4] غير أننا وجدنا في الرحلة ما يدل على أنه كان متجاوبا مع روح العصر في هذا الجانب أيضا، ولكن بنسبة ضئيلة جدا.

ج. المساجد :

للمساجد أهمية بالغة في حياة المسلمين، فهي الزاد الروحي لمسيرة المسلم الطويلة إلى الله– تعالى–، وهي المدرسة التي يأخذ فيها علومه وآدابه ويعرف ماضيه وحاضره، ويترسم خطى مستقبله.

*يكتبه تارة الريفي وتارة أخرى سيدي علي الريف، وهو من صلحاء تطوان.

[1]عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري،رحلة ابن حمادوش الجزائري،ص 33.

[2]أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري، حياته وآثاره، ص49.

[3]المرجع نفسه، ص 48.

[4] المرجع نفسه، ص 49.

ففي رحلة ابن حمادوش نجد أن الرحالة كان يتردد على المساجد لحضور دروس الشيوخ والأخذ منهم كحضوره لدروس الشيخ البناني يقول:«وكان أول يوم حضرت درسه من بعد صلاة الصبح إلى طلوع الشمس، وكان يدرس بجامع زاوية سيدي أحمد بن ناصر*».[1]

كما ذكر لنا أيضا حضوره لدروس الشيخ الورززي يقول:«وفي يوم الخميس لقيت الشيخ الورززي في جامع لاكاش فأتاني بالبخاري ومسلم وموطأ مالك وسمى الله تعالى ثم سرد سنده إلى المؤلف، وقرأ منه نحو الورقة فوضعه ثم سرد سنده لمسلم إلى المؤلف فسرد منه ماتيسر، ثم وضعه وسرد سنده إلى الموطأ...».[2]

من خلال ماتقدم نلاحظ أن ابن حمادوش كان يأخذ العلم عن شيوخه مشافهة ودرسا وليس بالإجازة وحدها أو بالكتب فقط، كما يلاحظ أيضا من خلال الرحلة أنه كان يناقش هؤلاء العلماء وينقدهم ولم يكن يتلقى منهم فقط .

2. الأماكن المغلقة الخاصة :

يكون التواجد في هذه الأماكن أطول فترة زمنية لأننا نحن الذي نختار أن نكون في داخلها، وهي الوحيدة التي يمكن أن تستوعب همومنا، وفيها نستطيع أن نعمل بخصوصية متناهية، وهي التي تبعث الأمان فينا وتدخل ضمن هذا النوع البيوت والدكاكين... وغيرها.

أ. البيت وأجزاؤه :

لا يمكن أن نفصل البيت عن أجزاءه مع العلم أن المؤلف لم يركز على أي جزء منه ولم يصف لنا هذا البيت، وإنما كان يذكره بالاسم فقط يقول:«ونزلت في حيني ودخلت داري في

*هو صاحب الرحلة المشهورة برحلة الدرعي،حج سنة1121 وتوفي سنة 1129. ووالده محمد بن ناصر المتوفي سنة1085، وهو صاحب الطريقة المعروفة بالناصرية، وقد استهرت الزاوية الناصرية في عهد أحمد بن محمد بن ناصر.

[1]عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري،ص34.

[2] المصدر نفسه، ص 114.

أول الساعة الثانية، فوجدت عندي ولدين، سيدي الحسن وسيدي الحسين، ولدتهما زهرا، زوجتي، توأمين، ولدتهما بعد نصف الليل لمضي نصفه»[1]

نلاحظ أن الرحالة لم يصف لنا هذا البيت ولم يذكر لنا أجزاءه وإنما أشار إليه فقط، لكنه ذكر لنا أنه لديه طابق علوي من المنزل وهذا يعني أن هذا البيت يتكون من طابقين سفلي وعلوي ومن ذلك قوله«وفي يوم الجمعة لقيت حجاما فأخذته معي إلى داري، وظننت أن ابني لايعرفه. فدخلنا الدار وقلت له اصعد مع عمك للعلوي.ففر إلى خارج الباب فاتبعته أنا والحجام، ولم يعلم أهل المنزل ما هو الأمر فقبضته وأتيت به العلوي فأمسكته فطهره وكان ختانا لم يعلم به أحد».[2]

الظاهر أن المؤلف فعل ذلك لفقره يقول:«وكان أهلي طامعين أن يجعلوه وليمة عرس. فسقط في أيديهم ولاموني عليه».[3]

من خلال ماتقدم نلاحظ أن الرحالة لم يقدم لنا وصفا لهذا البيت ولم يذكر لنا أجزاؤه وإنما ذكره الاسم فقط.

ب. الدكان :

يعتبر أيضا من الأماكن المغلقة الخاصة لكن المؤلف لم يقدم لنا وصفا وإنما أشار إليه بالاسم فقط يقول:«إلى يوم الاثنين، فتحت دكاني وكنسته وجلست فيه بعد صلاة ظهر الجامع الكبير».[4]

ثانيا. الأماكن المفتوحة :

ونقصد بها الأماكن التي تكون مفتوحة من جانب واحد فأكثر، شرط أن تكون مفتوحة من الأعلى، وتنقسم هذه الأماكن إلى أماكن عامة وخاصة، فالأماكن المفتوحة العامة يستطيع أن

[1] عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري، ص 35.

[2] المصدر نفسه، ص 118.

[3] المصدر نفسه، ص118.

[4] المصدر نفسه، ص 114.

يرتادها الآخرون بسهولة، رغم أن ملكيتها قد تعود إلى أشخاص محددين، أما الأماكن المفتوحة الخاصة فلا يستطيع ارتيادها الآخرون بسهولة، بل تكون حكرا لمالكيها.

1. الأماكن المفتوحة العامة :

ويمكن أن يرتاد هذه الأماكن شخصيات مختلفة أرغمتها ظروف معينة للتواجد فيها، قد تكون ظروف طارئة أو دائمة فقد تلتجأ الشخصية لهذه الأماكن من أجل الوصول إلى أماكن أخرى، كما هو الحال في رحلة ابن حمادوش الجزائري، وتتمثل هذه الأماكن في الوديان والجبال والأنهار والحدائق والمروج...إلخ.

أ. الطبيعة ومفرداتها :

نلاحظ من خلال رحلة ابن حمادوش أن صاحب الرحلة كن شديد الإحساس بالبيئة يتفاعل معها بشكل رائع فهو كثير ما ينقل لنا إعجابه الشديد بالمروج التي مر بها أثناء تنقلاته في المغرب يقول:«وبتنا في أول المرج الطويل ،الذي به طير الماء من غر وبط وغيره. كثير لاقليل...، ومنه قطعنا واد سب، الذي كان يجوزه بالقارب حسب كأنه نيل مصر، أو قطعة من البحر».[1]

أما فيما يخص الوديان فقد ذكر لنا المؤلف مجموعة منها يقول:«فخرجنا من تطوان إلى السفر، يوم السبت ثامن عشر صفر، فبتنا بوادي بوصفيحة ،فاستقل بإصلاحه للصومنه إلى وادي الخروب،لعلي أدرك به المرغوب، ومنه إلى وادي المخازي* ،لما قتل فيه الغازي».[2]

أما فيما يخص الأشجار، فقد شاهد ابن حمادوش أثناء خروجه من فاس ، الكثير من الأشجار فكان يتأملها، ويذكر خصائص كل نوع ويقارن ذلك بما في بلاده من نفس النوع فقد

---

[1]عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري، ص 72.

*يعرف بوادي المخازن، وقد وقعت فيه المعركة الشهيرة بين المسلمين والنصارى(البرتغاليين) حيث قتل فيها سبستيان ملك البرتغال سنة986. وكان السلطان عندئذ هو عبد الملك السعدي، وتعرف بمعركة وادي المخازن. ويشير المؤلف بكلمة(الغازي)إلى البرتغاليين وملكهم.

[2] المصدر نفسه، ص 72.

لاحظ أن شجر الدلم مثلا في المغرب طويل جدا فقال:«أنه شجر يطول جداً وورقه أكبر من ورق الدردار وصفته بين بين ورق البلوط وورق الدردار، وله ثمرتان احداهما عفص كبير أكبر من العفص التركي والأخرى بلوط حلو يؤكل سبحان من هو على كل شيء قدير».[1]

الظاهر أن المغرب استحوذ على اهتمام ابن حمادوش، حيث نجده كثير الحركة والتنقل فيه، وباتصاله المباشر بالطبيعة والناس لم يترك بعض الأشياء التي لاحظها إلا وتحدث عنها وقام بوصفها.

2. الأماكن المفتوحة الخاصة:

وتشمل هذه الأماكن، كل مكان مفتوح من جوانبه، وخصوصا أعلاه،بحيث تكون خاصة لأناس يمتلكونها، فتدخل ضمن هذا الإطار الحدائق المنزلية، الأراضي المفتوحة العائدة للملكية الخاصة والمزارع...إلخ.

لم يتحدث ابن حمادوش في رحلته من هذه الأماكن فقد ذكر لنا مكان واحد فقط وهو البستان يقول:«فبتنا في دار أقبع في بستان تين قريب من الدشرة».[2]

في الأخير نخلص إلى أنه:

- يبقى المكان الأول الذي تعيش فيه الشخصية ملازما له وتبقى صورته جميلة بالرغم من كثرة الأماكن التي ترتادها الشخصية، وبالرغم من وجود متطلبات اللهو والراحة فيها، وفي ذلك دلالة على قوة تأثير المكان الأول على الإنسان حيث تمحوا صورته كل ملامح الأمكنة اللاحقة حتى ولو كانت صورتها أجمل.
- أن المكان في الرحلة بمختلف أنواعه ليس مجرد إطار للأحداث والشخصيات فقط وإنما هو عنصر مهم وفعال باعتباره مرتبطا بالأحداث التي تم سردها.

[1] عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري، ص 99.

[2] المصدر نفسه ،ص 99.

المبحث الثاني: طبيعةالمكان ومميزاته في رحلة إبن حمادوش الجزائري.

تمهيد

لقد حضيت بنية المكان في الفنون السردية بأهمية كبرى، حيث نجد ابن حمادوش في رحلته إلى المغرب وأثناء تنقلاته فيها من مكان إلى أخر كتطوان ومكناس وفاس، يصف لنا الأماكن التي حل بها كما يصف الأحداث التي عاشها والشخصيات التي تعامل معها، ويصف الحركات والألبسة والعادات والتقاليد، لكن رغم هذا نلاحظ أن اهتمامه الكبير كان بالجانب العلمي من خلال لقاءات الشيوخ والعلماء، وهذا يعني أن المكان لم يحضر إلا كدلالة على الحلول به، أو الانتقال منه إلى غيره، فبمجرد ذكر المكان وتحديده باسمه، مباشرة بعد ذلك تحضر الشخصيات العلمية لتفرض سلطتها، وتهيمن على الأحداث بأقوالها وأفعالها على حساب المكان.

وبالرغم مما قلناه من اهتمام الرحالة بالمكان كفضاء للعلم بالدرجة الأولى، فإنه اهتم أيضا بالمكان كفضاء للتجارة، إضافة إلى الدور الذي يلعبه هذا المكان في الرحلة من حيث أنه اتخذ كوسيلة لاستحضار التاريخ، لذلك سوف نحاول فيما يلي أن نقف على طبيعة هذا المكان وأهم ما يميزه.

1. المكان فضاء للعلم :

يبدو أن الاهتمام الكبير للرحالة بالجانب العلمي، من خلال تركيزه الدائم على لقاءات الشيوخ والعلماء ومناقشاتهم ومناظراتهم والإفادة والاستفادة منهم، حال بينه وبين الاهتمام بهذا المكان، والحقيقة أن تراجع مرتبة المكان في اهتمامات الرحالة في هذا النوع من الرحلات يعتبر أمرا طبيعيا؛إذ هناك من النقاد من يعتبر أن «المكان في الرحلة العلمية بالدرجة الأولى محطة لتلقي العلم من شيخ من الشيوخ، ويكون إما مدرسة أو مسجدا أو جامعا. لكن المكان سرعان ما يتوارى وراء اهتمام الرحالة بالشيوخ والعلماء»[1]. وعلى هذا الأساس لم نلمس من الرحالة تفاعلا كبيرا مع الفضاء –كما يسميه البعض– يسمح له بالتعبير عن جمالياته.

[1] أحمد بوغلا، الرحلة الأندلسية الأنواع والخصائص، ص 244.

وللمكان كما نعلم علاقة قوية بالشخصية أو بالشخصيات التي تتحرك داخله، ونتفاعل معه ومع من فيه، فالإنسان قادر على أن يحرك المكان ويشكله بخصوصياته فقد يجعله مكانا إيجابيا ظاهرا تطمئن إليه القلوب، وقد يجعله مكانا سلبيا مدنسا فيصبح بذلك «فضاء يثير النفور والاشمئزاز بسبب أخلاق أهله، ومن ثم يصبح دالا على الكائن، والكائن دالا على الفضاء.»[1] إن الأماكن التي ظهرت في الرحلة هي أماكن واقعية معروفة بمواقعها، وأهلها، وكل ما يتصل بها، وليس أماكن في عالم اللاوجود، ولا أماكن من نسج الخيال.

لقد نقل لنا الرحالة ابن حمادوش من خلال رحلته تنقلاته بالمدن الكبرى في المغرب، كتطوان ومكناس وفاس، إلا أنه لم ينقل لها صورة يعرفها بها، أو يبرز جمال مناظرها، وأشكال بناياتها، فلم يركز على طبيعة أسواقها، وطرق تشييد حماماتها،بل حتى منارات العلم فيها لم يهتم بوصفها ولا بإبراز خصائصها مثلما فعل غيره، وإنما كان همه الوحيد التركيز على العلماء وما دار بينه وبينهم.

ورغم الحميمية التي تجمع الرحالة ابن حمادوش بالمكان الأصلي "الجزائر" إلا أنه لم يقدم لنا أيضا صورة الجزائر إلا من خلال حضور شخصيات العلماء والفقهاء والطلبة وعناوين الكتب الجوامع. فقد كان مهتما بكتب التفسير والحديث «ومن ذلك كتب الحديث الستة وخصوصا صحيح البخاري الذي ختمه عدة مرات بالجامع الكبير بالعاصمة أو في دار شيخه ابن ميمون*»[2] بالعاصمة، ويذكر ابن حمادوش أنه كان يقوم بإحدى الوظائف الهامة في الجامع الكبير بالعاصمة يقول: «وفي التاسع شعبان عام (1157 هـ) أذن لي أن أرجع إلى وظيفي من حضور البخاري».[3] وأثناء حضوره سرد البخاري لاحظ ابن حمادوش الفرق بين

[1] عبد الرحيم مودن: الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 2006م، ص 381.

*هو أبو عبد الله محمد بن ميمون، أهملت جميع المصادر ترجمة هذه الشخصية، كما سكتت عن تحديد زمان ولادته ووفاته وضبط مكانهما، يراجع محمد بن ميمون الجزائري، التحف المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم وتحقيق: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المقدمة، ص ب، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1392هـ، 1972.

[2] أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري، حياته وآثاره، ص 28.

[3] عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري، ص 121.

المملي الفصيح وغير الفصيح يقول «... وقد أسدي أحمد العمالي منه إلى غزوة الطائف فلما رآه المفتي الحاج الزروق لم يحسن قرأ إلى حجة الوداع».[1]

إذن نفهم من هذا طريقة سرد صحيح البخاري في الجزائر، حيث كان العلماء والطلبة يجتمعون في شكل حلقة ويقوم المسمع بقراءة جزء منه بصوت عال حتى يتمكن جميع الحاضرين من سماعه وفهمه.

من هنا لاحظ ابن حمادوش أن العلماء كانوا يتناوبون على قراءاته بشكل جيد وبناء على ما تفهم نستطيع القول «أن المسجد الجامع في الواقع جامعة فكرية كبرى يلتقي فيها العلماء والطلبة»[2] حيث يتناقشون في مسائل العلم وقضايا المعرفة، فلقد كان الجامع الكبير بالعاصمة مقصد الطلاب العلم، فكان صحيح البخاري من أهم المحاور التي تعقد حواها الحلقات.

إن أهم ما يلفت النظر في دراستنا لرحلة ابن حمادوش هو اهتمامه العلمي، وشدة ملاحظاته على ما حوله من الطبيعة والناس، إذ نجده في رحلته غلى المغرب «يسجل ملاحظاته العلمية، ويؤلف الرسائل، ويناقش المسائل التي لم تكن تشغل عقول جيله من المتعلمين»[3]، فرغم ظروف العصر الذي تميز بنوع من الركود بسبب تدني مستوى التعليم وجهل الحكام والاعتماد على النقل وحده نلاحظ.

أن بعض العلماء كانوا يجتهدون ويحاولون الخروج من هذا الحصار العقلي حيث نجد ابن حمادوش مثلا «يشتغل بالعلوم كالطب والفلك والحساب والهندسة وغيرها، وبجانب خط علماء عصره».[4]

---

[1] عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري، ص 122.

[2] عمر موسى باشا، محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني، د ط، مطبعة الإحسان، دمشق، 1979م، ص 210.

[3] المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، ص 207.

[4] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائري الثقافي (1500– 1830)، طبعة خاصة، دار البصائر، الجزائر،2007م، ج1، ص207.

لم يكن ابن حمادوش مهتما بعلم معين من العلوم بل كان يبحث في علوم كثيرة، من ذلك مثلا ما يسميه هو بعلم البلوط، والذي عرفه بأنه معرفة الطرق البحرية، وصرح بعد ذلك أنه تمكن من الإلمام به، حين قال: «أنّ يدي قد صَحَحَتْ في هذا العلم»[1]

كما نجده أيضا مهتما بما أسماه علم البونبة، أو كيفية رمي القنابل، فذكر أنه خرج إلى باب الجزيرة مع العلج حسن وهو اختصاصي في هذا الميدان، حيث رمى العلج بونبة واحدة، لاحظ ابن حمادوش أنها كانت قوية جدا لدرجة أن المهراز انفجر إلا أنها كما قال لم تصب الهدف المحدد لها، يقول «رمى العلج حسن بونبة واحدة... ارتفاعها ثلاثة وأربعون، وعَمَرَ المهراز بأربعة أرطال بارود فانشق المهراز ولم يعد ولم يصب الغرض، وتعلمت عيانا ما كنت قيدت عن سيدي عبد الرحمان الفاسي»[2]، لم يحدد ابن حمادوش الوحدة التي قاس بها ارتفاع البونبة، ولعله يقصد (ثلاثة وأربعون مترا) كما يذكر انه خرج مرة ثانية إلى باب الواد مع محمد بن البوذ باجي ليتعلم منه رمي البونبة، فلاحظ أن المهراز الذي استعمله معلمه في هذه المرة صغير، وشاهد كيفية تعميره بعجن البارود، وفي نهاية هذه التجربة صرح قائلا: «...فتممت ما بقي لي، والحمد لله، وأخذت علم البونبة وتعميرها ورميها وعجن بارودها، فأن من علاماتها والحمد لله، وجمعت فيها إلى تأليف سيدي عبد الرحمان الفاسي».[3]

بهذا جمع المؤلف بين ما تعلمه نظريا من تأليف عبد الرحمان الفاسي وما تعلمه تطبيقيا على يد العلج حسن، ومحمد بن البونباجي فأصبح بذلك ملما بعلم البونبة كما يسميها.

بالإضافة إلى ذلك اهتم صاحب الرحلة بعلم الفلك أيضا، حيث تعلم فيه سبعة تواريخ وهي: «العربي، والمسيحي والاسكندري... الفارسي والملكي والقبطي والعبري»[4]، ونلاحظ أن المؤلف كان كعادته حريصا على لقاء العلماء، فذكر أنه عندما وصل إلى فاس سمع أن بها منجما «واسمه سيدي محمد القسنطيني، فلقيته في هذا اليوم وتكلمت معه في هذا الأمر، فوجدت

[1] عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري، ص 255.

[2] المصدر نفسه،ص 253.

[3] المصدر نفسه، ص 254.

[4] المصدر نفسه، ص 264.

عنده دعوة أكبر من علمه».[1] ويخبره في رحلته أنه عندما أحضر له النصبات (الجداول والعمليات الفكرية) «لم يدر بما يحكم... ولم أجد عنده من العلم ما يغني، فغارفته»[2] بهذا تفوق مؤلف الرحلة على منجمي وفلكي عصره، فعندما كان في تطوان لم يجد من يتقن علم الفلك، يقول «وسألت عن علم الفلك فلم يكن له متقن»[3]، وهذا دليل أخر على أن المؤلف كان «بجانب خط علماء عصره»[4] فإن حمادوش لم يختص بعلم معين نمو كما وجدناه من خلال رحلته فقيها ورياضيا وطبيبا وصيدلانيا وفلكيا أي أنه كان ملما بعلوم كثيرة.

لذلك نستطيع القول من خلال ما جاء في الرحلة أن شدة الملاحظة والتدقيق فيها لم تكن وحدها من مميزات فكر ابن حمادوش فلقد كانت الجرأة من صفاته أيضا، حيث نلاحظ أنه كان يناقش هؤلاء العلماء وينقدهم ولم يكن يتلقى منهم فقط، ومن ذلك مثلا مناقشته لشيخه أحمد الورززي في أفضلية الملائكة أو الرسل، يقول: «حضرت مجلس الشيخ سيدي أحمد الورززي بجامع عند باب الملاح، يدرس التفسير ليلا... فقرأ قوله تعالى: «وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا» من سورة هود، وكان ليلة الأحد الرابع عشر من محرم، إلى ليلة الثلاثاء ثالث وعشرين الشهر المذكور، فقرأ قوله تعالى: «مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ» من سورة يوسف، فقال: ووجه تشبيه النسوة يوسف بالملك ما جبل في قلوب الخلائق من تفضيل الملك على الأنس».[5]

لم يرض ابن حمادوش برأي الشيخ الورززي حين قال بتفضيل الملك على الإنس وحاوره في هذه المسألة قائلا: «... أتقول بتفضيل الملك على الأنبياء ولم تستثني سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم؟ قال لي: أو ليس يقول الله تعالى: «علمه شديد القوى»، وهو جبريل، ولاشك أن المعلم أفضل من المتعلم؟ ثم لما أكثر علي قلت له إني لم استحضر الجواب... فلما كان

[1] عبدالرزاق بن حمادوش الجزائري،رحلة ابن حمادوش الجزائري،ص 80.

[2] المصدر نفسه،ص 81.

[3] المصدر نفسه، ص 71.

[4] أبو قاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 451.

[5] عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري، ص 65.

الغذ أتيته فأتى بكتاب فيه أن إجماع أهل السنة منعقد على أن الأنبياء أفضل من الملائكة وإجماع المعتزلة منعقد على أن الملائكة أفضل...».[1]

نلاحظ أن الحوار الذي جرى بين الورززي والمؤلف يدل على استقلالهما في الرأي حول أفضلية الملائكة أو الرسل، فرغم أن الورززي أجاز المؤلف، فإن هذا الأخير لم يكن تلميذًا تابعا له في كل شيء، غير أننا نجد ابن حمادوش يعود إلى الشيخ الورززي –كما حين طلب منه أن يتوسط له كي يتخلص من المكس (الضريبة) الذي فرض عليه في ميناء تطوان، وهذا دليل على أن المؤلف لم يقاطع شيخه بصفة نهائية بل يبقى الأمر مجرد خلاف فكري حول مسألة كلامية.

يبدو أن ابن حمادوش كان شديد الاهتمام بمناقشة المسائل الفقهية، فمن خلال الرحلة يتضح لنا أن المؤلف كان من الفقهاء المتمكنين والمجربين أيضا، بدليل رأيه في طير الماء، بقول: «... أن طير الماء كطير البرِّ في الحكم، لا كالسمك فاعرف حكم الله فيه لا يؤكل ميته لأنه يعيش خارج الماء لا داخل الماء وبالله تعالى التوفيق، وهي مسألة قل من يحققها».[2]

من خلال ما ورد يتضح لنا أن ابن حمادوش كان شديد الاهتمام بمناقشة المسائل الفقهية، كما أنه كان أيضا من الفقهاء المتمكنين والمجربين.

يبدو لنا من خلال الرحلة أن ابن حمادوش كان يتبع المبادئ الأساسية في البحث العلمي، إذ نجده يعتمد على الملاحظة والتجربة، حيث نجده في سفره من تطوان إلى فاس والعودة سجل ملاحظاته على المروج التي مر بها وطيور الماء التي شاهدها، كما سجل أيضا إعجابه الشديد بقوارب الصيادين الموجودة في هذا المرج وقال أنهم: «يصطادون بها السمك والطير والبيض ويتعدون عليها من ناحية إلى أخرى، ويحملون عليها أعمال الزرع وغيره»[3] ثم يذكر لنا صفة هذه القوارب يقول: «وهي من حزم البردي: يعقدون حزمة بحبال الدوم الرقيق ويجعلونها وسطا، ويعقدون حزمتين يجعلون من كل ناحية واحدة عالية يمينا وشمالا، ووسطها

[1] عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري، ص 67.

[2] المصدر نفسه،ص 73، 74.

[3] المصدر نفسه،ص 74.

منخفض، ويحملون ذلك بالربط من مقدمها، ويشدون ربط الكل ويركب فيها ويمسك في يده عودا طويلا يكتد به ولا يقدف»[1] نفهم من هذا أن البردي يشكل المادة الأولية في الصنع، و"نبات كالقصب".[2]

نلاحظ أن ابن حمادوش خلال عبوره لهذا المرج قارن بين قوارب الصيد الموجودة فيه، وبين تلك الموجودة في نهر النيل، مبديا إعجابه الشديد بطريقة صنع هذه القوارب* يقول: «وهذه صفة القارب المذكور وتلك الخطوط المحدقة داخله هو موضع ربطه بالخزم، حبال الدوم الرقاق. وهذا غريب جدا. ما رأيت مثله قط، ولا يضع تحته لا قرع ولا قرب بخلاف ما يوجد في النيل فإنه لا يبلغ هذه الصحة».[3]

من خلال ما تقدم نستطيع القول أن مؤلف الرحلة كان يعتمد على المقارنة العلمية المبنية على الأدلة، حيث كان مهتما بإظهار أوجه الشبه والاختلاف حول ما يلاحظه من ظواهر سواء كانت طبيعة (مثل طيور الماء) أمر من صنع الإنسان (مثل قوارب الصيد).

2. المكان فضاء للتجارة :

لقد كان جل اهتمام الرحالة منصبا على المكان كفضاء للعلم بالدرجة الأولى –كما سبق وأشرنا– لكن هذا لا يعني أنه لم يهتم بالمكان كفضاء للتجارة، ذلك أن ابن حمادوش ينتمي إلى عائلة كانت تمارس حرفة الدباغة، أي صناعة الجلود، إلا أن صاحب الرحلة لم يهتم بممارسة حرفة أسرته (الدباغة) «وهي حرفة كانت تجلب لأصحابها دخلا طيبا، لأن تجارة الجلود كانت رائجة مع أوروبا».[4] في القرن الثاني عشر الهجري (18م)، ومع ذلك لم نجده في متن الرحلة يتحدث عن هذه الحرفة، وإنما تحدث عن حرفة أخرى كان يمارسها، وهي تجليد الكتب ونسخها أي امتهن حرفة الوراقة حيث روى عن نفسه أنه كان يجلد الكتب وينسخها في مدينة الجزائر، وكان يملك دكان لبيع هذه الكتب قبالة الجامع الكبير، وكان في الجزائر

[1] عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري،رحلة ابن حمادوش الجزائري،ص74.

[2] جبران مسعود الرائد، معجم ألف بائي في اللغة والأعلام، ص 196.

* قدم ابن حمادوش رسما توضيحيا لهذا القارب، يراجع الرحلة، ص 74.

[3] عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري، ص 74.

[4] المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، ص 206.

سوق يدعى سوق الوراقين يقول: «وفي سادس عشرة موافق أول يوم الصيف، ابتدأت نسخ كتاب الجدل، وفي عشرين منه تممت شرح الجدل. وفي حادي وعشرين منه ابتدأت كتاب النجاح لابن سينا في المنطق. وفي ثالث وعشرين تممت كتاب الجدل للسمرقندي. وفي سادس وعشرين منه تممت كتاب الأحكام والطلاسم لابن سنا...».[1]

من خلال ما سبق يمكن القول أن الصناعة لم تكن متطورة بالمفهوم الحالي بل كانت ترتكز على الصناعات اليدوية كصناعة الجلود والنحاس والوراقة وغيرها وهذا ما نلاحظه من خلال الرحلة.

رغم أن المؤلف ذكر بأنه كان يشتغل بالكتب إلا أنه عاش حياة مليئة بالفقر والضيق، ويبدو أن هذه الحرفة لم تكن أيضا «حرفة رائجة لأن شكواه من حالته المادية كانت مستمرة».[2] فبقي الفقر يلازمه. فعلى أمل تحسين وضعه الاقتصادي رحل المؤلف إلى المغرب طلبا للعلم والتجارة معا–كما سبق وأشرنا– وذكر أنه انتقل إليه على ظهر سفينة فرنسية استأجرها ثلاث تجار جزائريين وكانت أول نقطة في المغرب تطوان وكانت عادة المكس بميناء تطوان من بين العادات السيئة التي استهجنها وهي في نظره «عادة قبيحة بتطوان ابتدعوها، أنهم يأخذون كل ما معك، ويحملونه إلى دار العشر*، ثم بعدها تنقضي أشغالهم من البحر تأتي العدول** التي كتبت في البحر فتقابل كتابها مع العدول الذين بدار العشر، ثم يدفعون مالا منفعة لهم فيه، ثم يتخلصون إلى أكل أموال الناس بالباطل فيفتحون كل ما معك ويأخذون خمسة لكل مائة مكسا، وتدفع من يدك زائدا على الخمسة أجرة العدول والعساس والحمال والقواني».[3]

كما ذكر أيضا صاحب الرحلة السلع التي أخذها من الجزائر ليبيعها في المغرب فوصفها قائلا «كان عندي صندوق فيه ثلاثة وأربعون تزينة شيشة تونسي وسبع عشر حزام حرير وقصاب

[1] عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري، ص 120.

[2] المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، ص 206.

*أي الجمارك أو الديوانية

**أي مفتشي البضائع في الميناء.

[3] عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري، ص 31، 32.

زبد، فأخذ في المكس مني حزاما حريرا وخمسة وعشرين شاشية زوج تزينات وواحدة»[1] نفهم من كلامه أن التزينة تعني اثني عشر شاشية.

لقد كان مؤلف الرحلة شديد الملاحظة حيث لاحظ غلاء الأسعار وارتفاع قيمة الضرائب، ونجده أنه يذكر أنه عندما أراد العودة إلى الجزائر حاول التهرب من دفع المكس على بضاعته في مرسى تطوان يقول: «وكان لي ما ذكرت أولا من الملف والقشينية. وكنت أخذت ذلك من الخواجة الحاج عبد الخالق عديل*، واشترطت عليه ألن لا ندفع عليها مكسا في مرسى تطوان، فكتب لي بذلك لصاحبه الحاج الطاهر السخسوخ القصري، فلما وصلت إليه قبض الورقة وأجاز ذلك، فلما حان السفر لقيني، فقال لي: إن الأمر قد انتقل من أيدينا إلى قائد تطوان الحاج محمد تميم».[2]

يبدو أن التوصية التي جاء بها المؤلف إلى المكاس، لم تنفعه في التهرب من دفع الضرائب على بضاعته، ومع ذلك نلاحظ أنه لم يقف عاجزا أمام هذه المشكلة، يقول «فما حان السفر ذهبت إلى الشيخ سيدي أحمد الورززي، فكتب له أن لا يتعرض لي في شيء، وقال له من جملة ما كتب: أن هذا اجتمعت فيه ثلاث خلال كل واحدة منها لو انفردت لأوجبت عليه أن لا تتعرض له في شيء: الأولى النسب، رجل شريف من آل بيت النبوة، الثانية أنه رجل عالم، الثالثة: قلة ذات اليد، فعفى عني وسامحني بعد أن طلب مني أن أحصي له ما عندي».[3]

الظاهر من كلامه أنه لم يقطع صلته بالشيخ الورززي، بدليل أن هذا الأخير توسط له كي يتخلص من المكس، كما نجد المؤلف أثناء عودته إلى الجزائر يحاول أيضا التهرب من دفع الضرائب يقول «فتحت دكاني وكنسته وجلست فيه....، وكان لي تلميذ، ابن عمتي، يصطحب مع خوجة الملح، وكان أذاك عاج الباشا إبراهيم، فطلبت منه أن يطلب من صاحبه إجازة

[1] عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري،رحلة ابن حمادوش الجزائري،ص32.

*من أعيان المغرب وتجارها توفي في سنة 1157هـ.

[2] المصدر نفسه،ص 112.

[3] المصدر نفسه، ص 112.

سلعتي، فنزل إليه وجلس عنده حتى وجهتها له هنا، فأدخلها مخزنه وبعثها مع أحد خدامه، فلم يمسكه صاحب الباب، فسلمت من المكس».[1]

3. المكان استحضار للتاريخ (الزمن) :

بالرغم مما قلناه من عدم الاهتمام الكبير للرحالة بالمكان كفضاء مفتوح، وتركيزه في الأساس على المكان باعتباره فضاء للعلم بالدرجة الأولى، إلا أنه يمكننا أن نقف على جانب فني هام، يتمثل في الدور الذي لعبه هذا المكان في الرحلة من حيث أنه اتخذ كوسيلة لاستحضار التاريخ. ذلك أن الرحلة كما نعلم «ولدت في حضن التاريخ وحينما صارت قائمة بذاتها، لم تنفصل عن مصدرها وإنما حولته إلى عنصر جوهري».[2]

ففي كثير من الفضاءات المكانية التي تحفل بها رحلة ابن حمادوش، نجد هذا الأخير، وفي كثير من المواقف يستدعي التاريخ السابق، ويبرز إلى الوجود الماضي ثم يعود إلى الحاضر من أجل سرد الأحداث وذكر الوقائع ذات العلاقة بالمكان.

فعلى الرغم من توظيف هذا الاستحضار توظيفا مباشرا بطريقة بسيطة، إلا أنه يعتبر دليلا على رغبة السارد أن يربط حاضره بماضي أمته، من خلال استدعاء بعض الأحداث التاريخية.

فمن خلال الرحلة نلاحظ أن هناك زمنين يتبادلان الدور عبر مسار الحدث، وهما الماضي والحاضر، الماضي الذي يمثل ما فات ومضى من الأحداث والوقائع والأخبار كإيراد ابن حمادوش لقصة الفيل فيقول «...وخبر الفيل أن أبرهة بني العملس أو العليمس بصنعاء كنيسة لم ير مثلها، وكتب إلى النجاشي آني بنيت لك كنيسة لم ير مثلها لملك قبلك وسأصرف إليها حج العرب –كما شاع هذا في العرب، غضب رجل من النسآت وخرج حتى أتى العليمس، فأحدث فيه، فأخبر بذلك أبرهة فغضب أبرهة وحلف ليسيرن إلى البيت فيهدثم سار بالحبشة والفيل فما لقى أحد من قبائل العرب أو تعرض له أحد إلا أسره أو قتله...»[3]

---

[1] عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري،رحلة ابن حمادوش الجزائري، ص 114.

[2] شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص 56.

[3] عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري، ص 213.

كما ذكر أيضا مؤلف الرحلة عادة الجزائريين في الاحتفال بليلة القدر يقول «وعادة متولي الجامع الكبير يفرغ قناطر أو أكثر شمع بفرقه على ثلاثين شمعة خضر ما بين الثلاثة أرطال إلى الأربعة في كل واحدة. ويأتون بهم إلى دار المفتي أو الوكيل، أيهم يحب الظهور فإذا صلى العصر أخرج ذلك المؤذنون أو غيرهم في أيديهم ويطوفوا بهم البلاد، وأقله إلى دار الإمارة، ويرجعون من طريق أخرى...»[1]بالإضافة إلى إيراده لقائمة ولاة الجزائر، وطريقة احتفال الجزائريين بالمولد النبوي الشريف وغيرهم من الأحداث والوقائع والأخبار.

أما الحاضر فهو يمثل الزمن الراهن الذي يعيشه صاحب الرحلة، وهو زمن عادي حقيقي، لأنه كان يسرد الحوادث والوقائع كما هي دون مبالغة، بل كان يجهد نفسه في تحري الدقة والصدق، كوصفه لوقائع وأسباب ثورة محمد الريفي حاكم تطوان على السلطان مولاي عبد الله فهو سرد أحداثها وتفاصيلها ونتائجها والنهاية التي آلت إليها، ومن الأمثلة الواردة في الرحلة قوله «وذلك لأن الباشا أحمد بن عبد الله الريفي كثر ماله وتجبر في نفسه وطغى على عباد الله حتى قرر المكوس كأنها سنة، ثم من تجبره أراد أن يدعي السلطنة لنفسه، فلم يمكنه ذلك لأن عادة أهل المغرب لا يطيعون إلا الأشراف...»[2]

من خلال هذا القول نلاحظ أن صاحب الرحلة يسرد لنا الأسباب التي أدت إل قيام الثورة في المغرب حيث أن الباشا أحمد الريفي تجبر وكثر ظلمه للناس حتى قرر المكوس (الضرائب) وبعد كل ذلك أراد السلطنة لنفسه، فلم يتمكن من ذلك لأن أهل المغرب لا يخضعون إلا للأشراف وهو ليس منهم، حيث نجد أن ابن حمادوش انتصر للسلطان مولاي عبد الله لأنه شريف، فهو حسب رأيه الأحق بالسلطة.

لهذا يظل حاضر المكان في حاجة ماسة إلى ماضي المكان «الذي سيتجلى منه مسببات ذلك... ومعرفتنا بماضي المكان لا تأتى إلا من خلال حاجة الحاضر إلى ذلك بغية الكشف عن منطقية الأشياء أي منطقية فكرة النص وإيديولوجيته، فالحاجة إلى ذلك الحل المستقبلي»[3]،

---

[1]عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري، ص 125، 126.

[2]المصدر نفسه،ص 75.

[3]إبراهيم عباس، تقنيات البنية السردية في الرواية المغربية، د.ط، منشورات المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والتوزيع، الجزائر، 2002م، ص 47.

فمستقبل المكان لا ينطبق إلا عبر ماضي المكان، وهذا الماضي لا يمكن الرجوع إليه إلا عبر تسخير الزمن، ذلك لأن الوقوف عند المكان يتطلب استحضار الزمن كشاهد على هذا الوقوف أو على هذا المكان، لذلك لا يمكن أن نفصل بين المكان والزمان في الرحلة نظرا للتفاعل الكبير بينهما، فكلاهما يساهم بشكل كبير أو بأخر في بناء واكتمال وتوازن مضمون الرحلة. لذلك «لا نبالغ أن قلنا أن المكان أكثر التصاقا بحياة الإنسان من الزمان، حقا إن الحس بالزمن يعد عنصرا أصيلا في بناء الإنسان الفكري والنفسي، ولكن إدراك الإنسان للزمن لا يكون إلا رهن استدعاء الإنسان له، فهو يستدعي الماضي لحنينه إليه أو يستدعي الحاضر لقلقه عليه، أو يستدعي المستقبل لأمله فيه أو يأسه منه...»[1]

من خلال هذا القول نلاحظ أن إدراك الإنسان للمكان إدراك حسي مباشر وهو يتم مع الإنسان طوال عمره، في حين أن إدراك الإنسان للزمن يتحقق من خلال فعل الإنسان وعلاقته بالأشياء.

لقد صاحب الرحلة أن يؤرخ بالتاريخين الهجري الذي يسميه العربي، والميلادي (الشرقي أو الفلاحي)، ونادرا ما كان يؤرخ بالتاريخ الاسكندري، يقول مثلا عن ذهابه إلى مكناس انطلاقا من تطوان «فدخلت مكناسة عند الزوال من يوم الأحد سادس وعشرين صفر من عام 1156 الموافق عاشر أبريل من سنة 1743 مسيحية»[2] كما يقول عن خروجه من مكناس متجها إلى فاس: «وصباح الخميس خرجنا ضحى من مكناس في قافلة عظيمة...، فسرنا السير الحثيث حتى دخلنا فاس، بعد صلاة المغرب بكثير، ونزلنا في فندق النجارين، فأصبحنا بها تاسع ربيع الأول من عام 1156 الموافق لثاني وعشرين أبريل من سنة 1743 مسيحية»[3] وبذلك يكون مؤلف الرحلة قد قطع المسافة بين تطوان ومكناس في ثمانية أيام بدليل قوله: «فخرجنا من تطوان إلى السفر، يوم السبت ثامن عشر صفر، فبتنا بوادي بوصفيحة».[4]

---

[1] نبيلة إبراهيم، فن القصة (في النظرية والتطبيق)، د.ط، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د.ت، ص 139.

[2] عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري، ص 72.

[3] المصدر نفسه، ص 80.

[4] المصدر نفسه، ص 71.

كما نلاحظ أيضا من خلال الرحلة أن أغلب الأحداث التي وردت فيها دارت في زمن الصباح والمساء، وحتى الليل، وفي ذلك دلالة أخرى على اهتمامه الشديد بالدقة في تحديد عامل الزمن، ومن أمثلة ذلك حديثه عن موعد سفره إلى الجزائر انطلاقا من مرسى تطوان، وكان ذلك عام 1157هـ يقول عن ذلك: «وكان يوم الأحد أول يوم من صفر فأقمت هناك ليلة الاثنين والثلاثاء والأربعاء، إلى أخر النهار طلبع بقية أصحابنا فبتنا ليلة الخميس مهيئين مسافرين، لأن سفرنا عند غروب الشمس ليلته، إلى أول ساعة من يوم الاثنين التاسع من الشهر المذكور موافق ثاني عشر من مارس دخلنا مرسى الجزائر»[1]

وبذلك استطاع ابن حمادوش أن يحتوي عنصر الزمن في رحلته من خلال الأهمية الكبيرة التي يوليها له، شأنه في ذلك شأن المؤرخ.

من خلال ما تقدم نستطيع القول أن الوقوف عند المكان يتطلب استحضار الزمن كشاهد على هذا الوقوف، ولهذا لا يمكن أن يتحدث عن المكان في الرحلة منفصلا عن الزمان.

[1] عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري، ص 113، 114.

خاتمـــــة

خاتمـــــــة

تمثل هذه الدراسة الموسومة "بالحبك المكاني في رحلة ابن حمادوش الجزائري" محاولة لدراسة طبيعة ووظيفة المكان في الرحلة لأن المكان هو العمدة، لذلك فالمكان في الرحلة ليس مجرد إطار للأحداث والشخصيات فقط، وإنما هو عنصر مهم وفعّال باعتباره مرتبط بالأحداث التي تم سردها.

فبعد رحلة البحث هذه التي حاولنا من خلالها دراسة المكان استخلصنا عدة نتائج ، فقد أوضحت الدراسة النظرية والتطبيقية أنّ:

- مصطلح المكان اختلف استخدامه من ناقد إلى أخر، ومن تجربة نقدية لأخرى، فمرة يرد بلفظ المكان ومرة يرد بلفظ الفضاء ومرة أخرى بلفظ الحيز.
- أن تقسيمات المكان تختلف من باحث إلى أخر كل حسب خلفيته النظرية التي اعتمدها إضافة إلى الأنموذج المراد دراسته.
- لا يمكن تصور المكان في الرحلة بمعزل عن باقي عناصر السرد، حيث لا يمكن تصور مكان بمعزل عن الشخصيات، الأحداث، الزمن، اللغة، فهذه العناصر مجتمعة هي ما يمنح المكان معنى ودلالة ودونها يظل وعاءً فارغا من كل إيحاء.
- أن أدب الرحلة فن نثري، يقوم على رحلة قام بها شخص في الواقع، فينقل للقارئ مشاهداته وانطباعاته التي تركتها الرحلة دون غيرها راجع إلى كون هؤلاء الرحالة كان لهم تأثير على الوطن العربي كله من خلال ما دونوه.
- تتميز الكتابة الرحلية بجملة من الخصائص الفنية التي تميزها عن الأجناس السردية الأخرى وهذه الخصائص هي:
  - هيمنة بنية السفر.
  - الذاتية.
  - الحكي بضمير المتكلم مفردا أو جمعا.
  - الواقعية.
  - دور الخطاب بالرجوع إلى نقطة الانطلاق.
  - تعدد المضامين وتداخل الخطابات (السرد، الوصف، الشعر).

- يقسم المهتمون بأدب الرحلة الرحلات إلى أقسام وأنواع، تختلف باختلاف هذه الأخيرة، حيث اختلف الدارسون في تصنيفها، أما نحن فقد ركزنا على أكثر الأنواع شيوعا وخاصة على أنواع الرحلات الجزائرية في العهد العثماني بالتحديد باعتبار أن موضوع دراستنا هو "رحلة ابن حمادوش الجزائري" التي تنتمي إلى هذا العهد.
- أن اختيار الأماكن المشار إليها لا يعني أنه لا يوجد سواها، إنما كان تفصيل الحديث عنها باعتبارها أماكن ذات دلالات، وتعتبر علامات في بناء الرحلة وسير أحداثها وهذا يعني أن هناك أماكن أخرى يمكن الإشارة إليها.
- يبقى المكان الأول الذي تعيش فيه الشخصية ملازما له وتبقى صورته جميلة، بالرغم من كثرة الأماكن التي ترتادها الشخصية، وبالرغم من وجود متطلبات اللهو والراحة فيها، وفي ذلك دلالة على قوة تأثير المكان الأول على الإنسان حيث تمحو صورته كل ملامح الأمكنة اللاحقة حتى ولو كانت صورتها أجمل.
- أن الوصف هو الذي يحدد مسار السرد، وذلك من خلال وصف الرحالة للأماكن التي حل بها، كما يصف الأحداث التي عاشها والشخصيات التي تعامل معها، فيصف العادات والتقاليد، المساحات الخضراء، المروج، الأماكن الطبيعية، الجبال، السهول، الوديان أي أنه يعمل على تقديم كل التوضيحات والتفاصيل للمتلقي.
- تعتبر رحلة ابن حمادوش جزءا هاما من تراث الجزائر والمغرب، لأنها كتبت في العهد العثماني بالنظر إلى أن عدد كتب الرحلة الجزائرية ضئيل جدا في هذا العصر –لأن معظمها ضائع حسب علمي– فهي تزخر بالمعلومات الكثيرة سياسيا وفكريا واجتماعيا واقتصاديا عن عصر كاتبها ومعاصريه، كما أنها مصدر هام عن حياة المؤلف نفسه.
- بالرغم مما قلناه من عدم الاهتمام الكبير للرحالة بالمكان كفضاء مفتوح، وتركيزه في الأساس على المكان باعتباره فضاء العلم بالدرجة الأولى، وأيضا كفضاء التجارة، إلا أنه يمكننا أن نقف على جانب فني هام يتمثل في الدور الذي لعبه هذا المكان في الرحلة من حيث أنه اتخذ كوسيلة لاستحضار التاريخ.

وفي الأخير لا نقول أننا أحطنا بهذه الدراسة من كل جوانبها، لكن نرجو أن نكون قد وقفنا في هذا البحث المتواضع وهذه الدراسة البسيطة، ونحمد الله ونسأله أن يفتح لنا أبواب رحمته وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قائمة المصادر

والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم، برواية ورش، عن الإمام نافع.
- الحديث النبوي الشريف.

أولا: المصادر:

1. عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة: لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، تقديم وتحقيق وتعليق، أبو القاسم سعد الله، د ط، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1983م.

ثانيا: المراجع:

1. إبراهيم خليل، بنية النص الروائي، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون (منشورات الاختلاف الجزائر)، بيروت، لبنان، 2010م.
2. إبراهيم عباس، تقنيات البنية السردية في الرواية المغربية، د.ط، منشورات المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والتوزيع، الجزائر، 2002م.
3. أحمد بن هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير من الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تح: محمد بن عبد الكريم، ط1، عالم الكتب، القاهرة، 1969م.
4. أحمد بوغلا، الرحلة الأندلسية، الأنواع والخصائص، ط1، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، المغرب، 2008م.
5. أحمد عوين، أبعاد المكان الفنية في عصافير النيل لإبراهيم أصلان، دار الوفاء لدنيا للطباعة والنشر، الاسكندرية، مصر، 2004م.
6. إخوان الصفاء، رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء، تقديم عليوش عبود، د ط، موفم للنشر، الجزائر، 2007م، ج2.
7. أريسطو طاليس، الطبيعة، تر: إسحاق بن حسين، تح: عبد الرحمان بدوي، ط1، الهيئة المصرية العامة، مصر، 1984م.
8. أغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تر: صلاح الدين عثمان هاشم، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987م.

9. الإمام أبي الحسن مسلم بن الحاج بن مسلم القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، د ت، ج3.
10. الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، الرحلة في طلب الحديث، حققه وعلق عليه: نور الدين عنتر، ط1، دار الكتب العلمية، مصر، 1975م.
11. باديس فوغالي، الزمان والمكان في الشعر الجاهلي، عالم الكتب الحديث، أربد، الأردن، 2008م.
12. بدري عثمان، بناء الشخصية الرئيسية في روايات نجيب محفوظ، ط1، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1986م.
13. بطرس البستاني، دائرة المعارف، د.ط، مطبعة المعارف، بيروت، 1884م، مج8.
14. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، تح: كرم البستاني، دط، دار بيروت للطباعة والنشر، 1980م.
15. البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد، تحقيق ماللهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، د.ط، دائرة المعارف العثمانية، 1985م.
16. تزفيطان تودوروف، باختين ومبدأ الحواري، تر: صالح فخري، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1996م.
17. جماعة من الباحثيين، جماليات المكان، ط2، دار قرطبة، الدار البيضاء، المغرب، 1988م.
18. حامد أحمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1986م، ج2.
19. حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، دراسة في الرواية المغربية، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1990م.
20. حسن عليان، تداخل الأجناس الأدبيية، الرواية والسيرة، سيرة مدينة وشعب، دار مجلاوي للنشر والتوزيع، الأردن، 2012، 2013م.
21. حسن نجمي، شعرية الفضاء المتخيل والهوية في الرواية العربية، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2000م.

22. حميد آدم ثويني، فن الأسلوب، دراسة وتطبيق عبر العصور الأدبية، ط1، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، 2006م.
23. حميد لحميداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1991م.
24. ابن خلدون عبد الرحمان ابن محمد، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، تح: محمد ابن ثاويت الطنجي، ط2، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2006م.
25. ابن خلدون، عبد الرحمان بن محمد، مقدمة ابن خلدون، تح: درويش جويدي ط2، المكتبة العصرية، بيروت، 2000م، ج1.
26. خير الدين التونسي، أقوام المسالك في معرفة أحوال الممالك، تح: المنصف الشنوفي، ط2، شركة أوريس للطباعة، تونس، 2000م، مج 1.
27. زكي محمد حسين، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، د ط، بيروت، 1981م، ص 65. ط، دار الرائد العربي، بيروت، 1981م.
28. زهير بن أبي سلمى، ديوان زهير بن أبي سلمى، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م.
29. سعيد يقطين، السرد العربي، مفاهيم وتحليات، ط1، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006م.
30. سعيد يقطين، قال الراوي، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1997م.
31. سيزا أحمد قاسم، بناء الرواية، دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ، ط1، دار التنوير، بيروت، 1975م.
32. سيزا قاسم وآخرون، جماليات المكان، ط2، دار قرطبة، الدار البيضاء، المغرب، 1988م.
33. سيزا قاسم، بناء الرواية، مهرجان القراءة للجميع، د.ط، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2004م.
34. شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، سلسلة كتابات نقدية، د.ط، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ، 2000م.
35. الصادق قسومة، طرائق تحليل القصة، د ط، دار الجنوب للنشر، تونس، 2000م.

36. صلاح الدين علي الشامي، الرحلة عين الجغرافيا المبصرة في الكشف الجغرافي والدراسة الميدانية، ط2، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1999م.
37. عبد الحميد ابن باديس: حياته وآثاره، جمع ودراسة: عمار طالبي، ط1، الشركة الجزائرية، الجزائر، 1968م، ج4.
38. عبد الرحمان بدوي، مدخل جديد إلى الفلسفة، ط3، وكالة المطبوعات، الكويت، 1979م.
39. عبد الرحمان عزمي، التواصل القيمي في الرحلة الورتلانية، د.ط، مؤسسة كنوز، الحكمة للنشر والتوزيع، الأبيار، الجزائر، 2011م.
40. عبد الرحيم مودن: الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، د ن.
41. عبد الله الخمار، فن الكتابة وتقنيات الوصف، د ط، دار الكتاب العربي، الجزائر، 1998م.
42. عبد المالك مرتاض، الكتابة من موقع العدم، مساءلات حول نظرية الكتابة، د.ط، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2003م.
43. عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، د ط، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1998م.
44. عبد النبي ذاكر، عتبات الكتابة، مقاربة لميثاق المحكي الرحلي العربي، د.ط، منشورات مجموعة البحث الأكاديمي في الأدب الشخصي، المغرب، 1998م.
45. عزالدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، ط2، مكتبة غريب، القاهرة، مصر، 1990م.
46. عمر ابن قينة، في الأدب الجزائري الحديث (تأريخا وأنواعا وقضايا وأعلاما)، د.ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ، ماي 1995م.
47. عمر بن قينة، اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة، دط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، بن عكنون، 1995م.
48. عمر بن قينة، الخطاب القومي في الثقافة الجزائرية –دراسة–، د.ط، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1999م.

49. عمر موسى باشا، محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني، د.ط، مطبعة الإحسان، دمشق، 1979م.
50. عمورة عمار، الموجز في تاريخ الجزائر، ط1، دار ريحانة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002م.
51. غاستون باشتلار، جماليات المكان، تر: غالب هلسا، ط2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 1984م.
52. فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، ط2، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، 2002م.
53. فوزي سعيد عيسى، دراسات في أدب المغرب والأندلس، د.ط، دار المعرفة الجامعية، 2000 م.
54. أبوالقاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ط2، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1990م، ج2.
55. أبوالقاسم سعد الله، الطبب الرحلة ابن حمادوش الجزائري، حياته وآثاره، د ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م.
56. أبوالقاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1830،1500)،ط1، دار الغرب الإسلامي، 1998م، ج2.
57. أبوالقاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، طبعة خاصة، دار البصائر، الجزائر، 2007م، ج1.
58. أبوالقاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، د.ط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م.
59. قيس عمر محمد، البنية الحوارية في النص المسرحي، ناهض الرمضاني أنموذجا، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2012م.
60. محمد البشير الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي (1952- 1954م)، ط1، الغرب الإسلامي، بيروت، 1997م، ج4.
61. محمد بن عثمان المكناسي، الإكسبر في فكاك الأسير، تح: محمد الفاسي، د.ط، المركز الجامعي للبحث العلمي، المغرب، د.ن.

62. محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم وتحقيق: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المقدمة ، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1392هـ، 1972م.
63. مختار حساني، تاريخ تحرير مدينة وهران، د.ط، الرحلة القمرية لابن زرفة تحقيق مختار حساني، جامعة الجزائر، مخبر المخطوطات، ج2، 2003م.
64. المسعودي أبو الحسن، مروج الذهب ومعادن الجوهر، د.ط، موفم للنشر الجزائر، رغاية، 1989م، ج1.
65. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، حرف الحاء، ط1، دار الجيل، بيروت، 2005م، مج7.
66. ميخائيل باختين، أشكال المكان والزمان في الرواية، تر: يوسف حلاق، د ط منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1990م.
67. ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي (حتى نهاية القرن الرابع الهجري)، ط1، دار النشر، الجامعات المصرية +مكتبة الوفاء للطباعة والتوزيع القاهرة، 1995م.
68. نبيلة إبراهيم، فن القصة (في النظرية والتطبيق)، د.ط، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د ت.
69. نبيلة ابراهيم، فن القصة، في النظرية والتطبيق، د ط، دار القباء، د ت.
70. أبوهلال العسكري، كتاب الصناعين الكتابة والشعر، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1986م.
71. الورتلاني سيدي الحسين بن محمد، الرحلة الورتيلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، ط1، تقديم محمد بن أبي شنب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2008م، ج1.
72. وهب رومية، الرحلة في القصيدة الجاهلية، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1979م.
73. يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ط5، دار المعارف، القاهرة، 1986م.

ثالثا: الرسائل الجامعية:

1. بالقاسم بلحارث،جماليات المكان في رحلة الحج إلى بيت الله الحرام للحاج ناصر الدين ديني والحاج سليمان بن ابراهيم، مذكرة معدة لنيلشهادة الماجيستير،جامعة العقيد آكلي محند أولحاج البويرة،2013،2014م.
2. سعدية بن يحي، دلالة المكان في رواية عابر سرير لأحلام مستغانمي، مذكرة لنيل شهادة الماجيستر، جامعة الجزائر، 2007- 2008م.
3. بن عمارة منصورية، المكان في الشعر المغربي القديم (من القرن الخامس هجري إلى نهاية القرن السابع الهجري)، مذكرة تخرج لنيل شهادة ماجيستر في الأدب المغربي القديم، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2011م.
4. لحسن كرومي، جماليات المكان في الرواية المغاربية، بحث قدم لنيل شهادة دكتوراه جامعة وهران، 2005- 2006م.

رابعا: المجلات:

1. أحمد زنيبر، المكان في العمل الفني، مجلة عمّان، أمانة عمان الكبرى، ع 29، آذار 2006م.
2. سميرة انساعد، صورة المشرق العربي من خلال رحلات الجزائريين في العصر العثماني، مجلة التراث العربي: مجلة فصيلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق ع 97، السنة 24 آذار 2005م.
3. معاوية البلال، قراءة في استراتيجية المعنى، المكان في القصة السودانية الحديثة، مجلة نزوى، ع 22، أبريل 2000م.
4. يوري لوتمان، مشكلة المكان الفني، تر: سيزا قاسم، مجلة البلاغة المقارنة، ع 6 1986م، القاهرة.

خامسا: المعاجم والموسوعات:

1. أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تر: خليل أحمد خليل، ط2، منشورات عويدات، بيروت، 2001م.

2. جبران مسعود، الرائد، معجم ألف بائي في اللغة والأعلام، ط3، دار العلم للملايين، تموز، يوليو، بيروت،2005م.
3. مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، القاموس المحيط، مادة (كَوَنَ)، تح: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة باشراف:محمد نعيم العرقوسي، ط8، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان،2005م
4. مجدي وهبة، كامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984م.
5. محمد القاضي ومجموعة من المؤلفين، معجم السرديات، ط1، دار محمد علي للنشر، لبنان، 2010م.
6. مصطفى حسيبة، المعجم الفلسفي، ط1، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، 2009م.
7. المنجد في اللغة العربية المعاصرة، دار المشرق، ط1، بيروت، لبنان، 2001م.
8. منظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، حرف الحاء، ط1، دار الجيل، بيروت، 2005م، مج7.
9. ابن منظور، لسان العرب، ضبط نصه وعلق حواشيه خالد رشيد القاضي، ط1، دار صبح، بيروت، لبنان، 2006م.

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات	الصفحة
مقدمة	أ-د
الفصل الأول: المكان وأدب الرحلة	02-49
المبحث الأول: المكان: المفهوم، الأنواع، الأهمية، وعلاقاته بعناصر السرد.	02
1-مفهوم المكان.	02
2-أنواع المكان.	13
3-أهمية المكان في النص السردي.	16
4-علاقة المكان بعناصر السرد القصصي.	18
المبحث الثاني: أدب الرحلة: المفهوم، النشأة، الخصائص الفنية، الأنواع.	27
1-مفهوم الرحلة.	28
2-نشأة أدب الرحلة وتطوره.	33
3-الخصائص الفنية للرحلة.	40
4-أنواع الرحلات.	44
الفصل الثاني: الحبك المكاني في رحلة ابن حمادوش الجزائري.	51-89
مدخل	51
1-ابن حمادوش وعصره.	51
2-مضمون الرحلة.	56
المبحث الأول: أنواع المكان في رحلة ابن حمادوش الجزائري.	59
التقسيم الأول:	
1-المكان الأصلي.	59
2-المكان الآخر.	63
3-المكان الهدف.	66
التقسيم الثاني:	
أولا: الأماكن المغلقة.	69
ثانيا: الأماكن المفتوحة	74

المبحث الثاني: طبيعة المكان ومميزاته في رحلة ابن حمادوش الجزائري.	**77**
1-المكان فضاء للعلم.	**77**
2-المكان فضاء للتجارة.	**83**
3-المكان استحضار للتاريخ (الزمن).	**86**
خاتمة	**91**
قائمة المصادر والمراجع.	**95**
الفهرس	**104**
ملخص	**106**

ملخـص

ملخص

حاول هذا البحث الموسوم بـ "الحبك المكاني في رحلة ابن حمادوش الجزائري" دراسة المكان في الرحلة لما للمكان من أهمية قصوى في تشكيل بنية النص السردي.

وقد اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي المعتمد آلية التحليل لتحقيق أهدافها المرجوة، وبنيت على خطة قوامها: مقدمة وفصلان وخاتمة.

تناولت المقدمة تعريفا شاملا للموضوع.

أما الفصل الأول، فتناول مفهوم المكان، وأنواعه، وأهميته، وعلاقاته بعناصر السرد، إضافة إلى مفهوم الرحلة، ونشأتها، وخصائصها الفنية، وأنواعها.

في حين أفرد الفصل الثاني لدراسة المكان في رحلة ابن حمادوش الجزائري، والتي حاولنا أن نستخرج منها أنواع الأماكن باعتبار أن كل رحلة لا تخلو من الأحداث المتنوعة، وبتعدد الأحداث تتعدد الأمكنة في الرحلة، كما قمنا أيضا بدراسة طبيعة هذا المكان ومميزاته.

أما الخاتمة فتضمنت أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

الكلمات المفتاحية:

الحبك، المكان، الرحلة، ابن حمادوش.

Résumé

Dans cette recherche -la fonction et la nature de l'espace dans le voyage d'Ibn Hamadûch- on a essayé d'étudier l'espace dans le voyage et son importance dans les récits. On a basé sur la méthode descriptif et sa mécanisme d'analyse afin d'atteindre les objectifs souhaités travaillant sur un plan formé d'une introduction, deux chapitres et une conclusion.

L'introduction a donné une définition globale de ce sujet alors que "le premier chapitre" est consacré pour «l'espace», des concepts, types, l'importance et la relation avec les éléments de récit aussi des racines et caractéristiques. "le deuxième chapitre" a traité les types de l'espace dans le voyage d'Ibn Hamadûch, nature et caractéristiques.

La conclusion a conclus les résultats les plus importants de l'étude.